مدار القلب

محمد جبريل

مدار القلب

تأليف
محمد جبريل

هنـــداوي

مدار القلب

محمد جبريل

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٩ ٣٣٧٨ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر هذا الكتاب عام ٢٠١٩.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٣.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة للسيد الأستاذ محمد جبريل.

المحتويات

روائح القرب	٩
غوامض يصعب فهمها	١٧
ملامسة الضفاف	٢٣
شمس الليل تؤذن بالمغيب	٢٩
إيقاعات	٣٥
في انتظار ما لا يأتي	٤١
ارتحال السكون	٤٩
اغتيال	٥٥
نافذة على ميدان	٦١
مدار القلب	٦٧
مقام الصحو	٧٣
رفة ابتسامة	٨١
غواية	٨٣
الجسر	٨٥
الحقيقة تحتمل الكذب	٩١
تعدد الوسائل إلى المبتغى	٩٧

ربما أخمد عريانًا وجائع
يا عدو الشمس ... لكن لن أساوم
وإلى آخر نبضٍ في عروقي سأقاوم
ربما تُطعِم لحمي للكلاب
ربما تُلقي على قريتنا كابوس رعب
يا عدو الشمس ... لكن لن أساوم
وإلى آخر نبضٍ في عروقي سأقاوم
ربما تصلب أيامي على رؤيا مذلة
يا عدو الشمس ... لكن لن أساوم
وإلى آخر نبضٍ في عروقي ... سأقاوم

سميح القاسم

روائح القرب

ربما تختلط المرئيات، تتشابك في المخيِّلة، دوائر ومثلثات ومربعات ومستطيلات، خيوطٌ تتداخل، تُحِيل ما يبدو من المخيِّلة جزئياتٍ مبعثَرة تصعب مشاهدتُها، يختلط ما أراه وما أتخيَّله، تتحوَّل المرئيات إلى أشباحٍ متحركة وثابتة، ثَمة ملامح تظَل ماثلة في الذاكرة يصعب نسيانها، أقيم علاقاتٍ بين من أعرفهم ومن يختلقهم الخيال، أعرف أن ما يجري في الواقع لا يتطابق مع صور المخيِّلة.

وأنا صغيرٌ، أقمتُ علاقة في الخيال، بيني وبين المدرِّسة، تأمَّلت يدها، تضعها فوق الدرج، أصابعها الطويلة، وأظافرها المطلية بالمانيكير الأحمر، ظلَّت الصورة في بالي، خلوتُ إليها، جعلتُ من البلي جنودًا يتقاتلون، يتطاير الدم من أجسادهم.

أذكر تحديقي في القمر من نافذة القطار، أصيح في السائق الذي لا أراه في القاطرة الأمامية، كي لا يجعل القمر يسبقه.

اختلطت وقائع طفولتي بالتخيُّل الذي فرضه انقضاء السنين، اختلط ما حدث، وما اخترعه الذهن، ما تخيَّله، ربما تغلَّب المتخيَّل على الذاكرة الحقيقية.

مارستُ التخيُّل كثيرًا في طفولتي؛ تمدَّدتُ تحت السرير النحاسي الكبير في غرفة نوم أبي، وضعتُ صندوقًا فارغًا مقلوبًا عليه حلوى اشتريتها من مصروفي، أبيعها — بالأجل — لإخوتي وأقاربنا. قرأتُ على فاترينة عم طلعت البقال لافتةً صغيرة، تقول: «إن نَطَقَ الديك، شُكُك أديك» ... أزمعت أن أفعل الفعل نفسَه؛ أدليتُ — من طرف السرير — ورقة كُتِب عليها كلمات تشترط الدفع الفوري.

يأخذني الفصال، أجده مشابهًا لما أراه في دكاكين شارع الميدان، اخترعتُ ألعابًا بأدوات البيت؛ الملاعق والشوك والأوعية والأكواب.

أسلِّم نفسي للنوم على حواديت أمي: «يا ست يا ستنا، يا اللي قصرك أعلى من قصرنا، ما تدنيش عنقود عنب، للمريض اللي عندنا؟ إيه اللي غيَّر شكلك يا جدتي؟ يا بير يا بير، أديها صراصير كتير!» أجدني روبنسون كروزو، يُخضِع حيوانات الجزيرة وطيورها، تضيف إلى الحكايات حواشي وهوامش وزيادات، بما يجذب انتباهي، أحثُّها على الزيادة.

ظلَّت حياتي مقتصرة على القراءة، لا أنزل إلى اللعب في شارع التمرازية، ولا أذهب إلى الشاطئ، لا أقود دراجة، أقرأ قصة أو رواية، ما أتخيَّله ينتقل من صفحات الكتب والمجلات إلى رأسي، شخصيات عرفتها في تشابك القراءات، أحوالُها مشابهة لما أعيشه، أو أتمنى العيش فيها، تتشكَّل — في توالي الأيام — ملامح وقسمات ومواقف، أنسج من الحكايات حكاياتٍ أخرى، أتصوَّر نفسي فيها، أختار الشخصية التي تثيرني، قد تكون فلانًا بقدرته على نسج المكائد، وليس فلانًا الذي يتلقَّى الضربات في صمتٍ، وبلا مبالاة.

تخيَّلت شهرزاد تلجأ إلى ذكاء توُدُّد، ولؤم شواهي ذات الدواهي، وألاعيب علي الزيبق، ومؤامرات علي الكلباني، وميل السندباد لتحدي الخطر. تلجأ شهرزاد إلى كلٍّ هؤلاء في مواجهة أفعال شهريار؛ إعداماته المتوالية لبناتٍ في مثل سنِّها، ما قضى به جرائم؛ لا بد من محاسبته عليها، يغيثونها؛ فيعاقبونه على ما فعل، لا تحني الرأس بالتذلُّل، وتطلب الإشفاق.

لم تترك شخصيات الجريمة والعقاب بالي بعد أن قرأتها: رسكولينكوف والمرابية العجوز ومفتش الشرطة، أستعيدها في جلستي على القهوة، وأنا أرنو إلى أفق البحر، تخيَّلت نفسي رسكولينكوف، أقتل المرابية العجوز، لكنَّني لا أخلف أثرًا، ولا أعود — كما فعل الشاب المسكين — إلى موضع جريمته، أحقِّق الجريمة الكاملة.

أنظر إلى السيدة البدينة ذات الوجه المستدير، والشعر المجعَّد، والأصباغ الفاقعة، هي عنايات، في رواية نجيب محفوظ «السراب»، أتوق إلى علاقة معها، العلاقة نفسها التي وجد فيها كامل رؤبة لاظ حلًّا لأزمته الجنسية، الجنس في بالي يرتبط بالقسوة والعنف، تقتحمني الغابة بتعدُّد وحوشها.

أنفض توعُّد محجوب عبد الدايم في «القاهرة الجديدة» أن يدمِّر المدينة الهائلة، هو ما توعَّد به الشاب راستينيال باريس في رواية بلزاك «الأب جوريو».

التقيت دون كيخوتة في بحري، يخوض معاركَه ضد العساكر عند تصدِّيهم للمتظاهرين في أثناء قدومهم من رأس التين، سِرت في طريق غسان كنفاني إلى حيفا، توزَّعت الطرق، لم أعرف أيُّها يمضي إلى أين!

أحببتُ البنت في البيت المقابل، تخيَّلت أنها تحبُّني، الأيام القليلة التي مضت على سكناهم، لم تتِح لي معرفة اسمها، ولا الصلة بينها وبين الرجل الأربعيني الذي يقاسمها الحياة في الشقة، «هل هي ابنته، أو زوجته، أو قريبة تؤنس أيامه؟»

اخترت لها اسم مريم، جارة أسرة أحمد عبد الجواد، رسمتُ في بالي عشة طيور تعلو السطح، أصعد إلى مريم، وهي تُطعِمها الحبوب، أهمس لها بكلمات الغزل، تمامًا كما كان فهمي يفعل في وقفته خلف الجدار الفاصل.

لم أعد أستطيع تخيُّل الدنيا من دون أسرة «بين القصرين»؛ أحمد عبد الجواد وأمينة وياسين وخديجة وفهمي وعائشة وكمال وأم حنفي، نظرات السطح الممتدة إلى مآذن القاهرة وقِبابها، ثقوب المشربية المطلة على ما بين القصرين والنحاسين، وخروج الزوج والأبناء إلى أعمالهم، خيمة عساكر الإنجليز في الساحة الصغيرة، تناهي رفْع الأذان — عبر خَصاص المشربية — من الحسين أو الأزهر، نداء الجرسون في القهوة القريبة، قعقعة عربات الكارو على مستطيلات البازلت. أطلُّ من سطح قصر بشتاك، الموضع الذي اختاره نجيب محفوظ لأسرة أحمد عبد الجواد، أشرد في المآذن والقِباب، تتخلَّل البيوت إلى نهايات الأفق، يتقمَّصني كمال، فأطيل التوقُّف أمام قبو قرمز، تختفي سحن المارة وتكويناتهم الجسدية، يتقافز في مساحة الظلمة — وسط القبو — عفاريت وجان ومخلوقات شائهة، أتلفَّت مرتبكًا وخائفًا، حتى أجد يدًا تعينني على السير إلى الناحية الأخرى، أجدني ياسين في جلسته على القهوة، أرفع نظراتي الملهوفة إلى نافذة زنوبة، أرقب إيماءة الموافقة، أتلفت في جوانب المكان، أحدس أين تمضي خطواتنا، تشحب ملامح فتاة النافذة المقابلة، تغيب تمامًا، تحلُّ مريم واضحة الملامح، أذكر حبَّ فهمي لها، وغضبة أمينة من طلب ياسين أن يتزوجها، أكتم مشاعري نحوها، أطرد الهواجس اللعينة، فلا أسيء إلى ذكرى فهمي الذي استشهد في الثورة. تمضي خطواتي في طريق ضابط قسم الجمالية، أفعل ما لم يكن يقوى على فعله، أرقب استجابة عائشة، أدندن بما تغنيه خديجة: «يابو الشريط الاحمر، ياللي أسرتني، ارحم ذلي!»

هللت — بتخيُّل حب بنت الجيران — لوقفتها أمام الباب، بدا جسدها أقرب إلى الامتلاء مما أراه من داخل النافذة، والعينان الساجيتان تنطقان بمعانٍ يصعب تفسيرها. حين أغلقتْ البنت نافذة البيت، بدت لي مفتوحة بدلًا من النافذة المغلقة، رأيتها تطالعني في إطارها، ناوشتني أمنية، كأنها حلمٌ: أن أراها عارية، أستأذن في دخول الحمام، أفرغ ما أختزنه من انفعالات التصور والبنت تتحرك، وتتكلم، وتعبِّر بعينيها ويديها، أشرد في آفاقٍ

لا تنتهي، فسَّرتُ حرصها على إبقاء النور مضاء، بأني أجد في الرؤية ما يثيرني ويرضيني، نزعت قميص النوم الأسود، وألقته بعيدًا، ظللت صامتًا، وإن اتجهت عيناي إلى البنت، التي أحتضنها في الخيال.

ألتقط من الشارع، أو الجريدة، أو شاشة التليفزيون، وجهًا يثير في داخلي ما يدفعني إلى استعادته، ربما في حجرة النوم، أو داخل الحمام، أو حتى وأنا أشرد في الفراغ أمام النافذة، يغيب تمام الاستعادة ما لم أكن بمفردي. للتخيُّل صلته بالنساء، أتخيل — من وراء الفستان — تكوينات جسد الفتاة الواقفة في زنقة الستات؛ الاستدارات والتكويرات والانبعاجات، التفصيلات الغائبة.

أخلو إلى نفسي، وإلى من احتضنتها النظرات، أستعيد ما استقرَّ عليه تصوُّري، لا ألتفت إلى ما ترتديه، أو أعريها، أغمس وجهي في شعرها، أحاورها بصوتٍ هامسٍ، ملتذٍّ، يتصاعد بتصاعد النشوة، تأتي الرجفة، فتشحب الصورة، وتبهت المرئيات، يتبدَّل الحال بما يصعب فهمه.

المشهد الذي أراه على الشاشة، تتحوَّل شخصياته إلى مشاهد كثيرة، أوضاع يصنعها الخيال، يضيف إليها ما قد يباعد بينها وبين المشاهد، التي بقيت في الذاكرة، أغمض عيني، أترك لخيالي تجسيد الرؤى في الظلمة، ما تمنيته، وما لم أعِد له نفسي، يعجز الخيال عن تصور أشياء كثيرة.

الظلمة تعينني على التخيُّل، أختلق المَشاهِد؛ التي أتصورها، أبدِّل، أضيف، أحذف، أمارس الفعل الذي أختاره بالكيفية التي أريدها.

أمتلك قدرة على رؤية أشياء لم تحدث أمامي، ولا التقيتُ بناسِها، ولا كلَّمني عنها أحد، يستغرقني الشرود، وأنا أتذكر الوقائع والتفاصيل، حتى تعبيرات الوجوه والأيدي، أستعيدها كأني رأيت، وليس بالتوقُّع أو التخمين.

أقاوم التشوُّش؛ الذي أعانيه في بدء محاولة التصوُّر، ساحات وخلاءات وميادين ومقاهٍ وحدائق وأعمدة نور ونوافذ وشرفات وشواهد قبور ومآذن وقِباب وأبراج وناس باهتو القسمات، أشيِّد من الذاكرة ما غيَّبه الزمن، ربما جرَّني الخيال إلى أشياء غير موجودة، تبيَّنت أني أنسى ما أتخيَّله، ولا أنسى ما حدث بالفعل.

لا أتخيَّل ما مضى، أحاول الشرود في صورٍ قديمة، كيف كانت، لا يسعفني تخيُّلي، صور ما أعيشه يجتذبها التخيُّل بلا إبطاء، يتسع المشهد، بألوانه وظلاله وعُمقه، حتى المنمنمات الصغيرة لا تفلتها المخيِّلة.

الخيال — وحده — هو الذي يسدُّ فجوات الذاكرة، وغياب الواقع، أحدِّق في تقاطيع محدِّثي، يغيب في كلماته ما كنت أتوقَّعه أو أرجوه، أميل بنظراتي، أغمض العينين، أتخيَّل الشخص في صورة، أجسِّد ملامحها، تعكس الملامح — التي أتخيلها — ما عبَّرت عنه كلماته، اختلافي واتفاقي معه، ما إذا كان يستحق الود أو العداء.

تحوَّلت إلى المغامر تاتارين في رواية ألفونس دوديه، تمنَّيت أن أفعل مثل كيرك دوجلاس في فيلم «سبارتاكوس»، شغل الأمر خيالي، حتى بدأت في محاكاة ما رأيته منه، تكرَّرت المحاكاة فصرتُ الممثل الأمريكي نفسه.

إذا خلوتُ إلى نفسي، استعدت ما رواه أبي من حكاياتٍ، أتخيَّل الناس والوقائع، غاب التكوين الجسدي لسعد زغلول، ما رأيته في الصحف وكتب التاريخ، أتخيَّل رجلًا آخر غير مَن تظهره الصور، يحلُّ — بدلًا من الشيخ العجوز، ذي الشارب المتهدل، والتجاعيد، والوجنتين المتهدلتين — شاب له عينان يشعُّ منهما بريقٌ، يمشي بخطواتٍ سريعة، يخطب بنبراتٍ واثقة، تحرِّك الناس، تحرضهم على الثورة.

قلتُ لنفسي، وأنا أغالب الدمع لوفاة نعيمة في ثلاثية نجيب محفوظ: «حدَّد الطبيب سن الثامنة عشرة لرحيل البنت الجميلة، الطبيب والبنت صنعهما الفنان، كان يستطيع إطالة عمرها!» حاصرتني الظروف، سوى ما أتخيله، ما أستطيع تخيُّله، واجهني العنف والقسوة، وما لا أستطيع مغالبته، تبدو الطريق واحدة، يصعب أن يأخذني الخيال بعيدًا عن الماثل أمامي، وأدرك خطره.

جلستُ على حافة السور الحجري الفاصل بين جامع أبي العباس والدحديرة الواصلة بين الميدان والموازيني، تتناهى — من ورائي — أصوات مريدي جلوة المولد في وقفتهم أمام زاوية الست مدورة، يراجعون الأحزاب والأوراد، يعدون الأعلام والبيارق واللافتات للانطلاق.

أرقب — بالتوقُّع — قدوم «جودو»، هو من أنتظره، غاب التصوُّر المحدد، وإن ثبتت في بالي قامة بيكيت الطويلة، النحيلة، وخطواته المتباطئة، وبشرته المتغضنة.

عرفته دون أن يقدِّم أحدنا نفسه إلى الآخر، كأننا نصِل ما هو قائم، أخذتني الهيبة، فلم أحاول التدقيق في ملامحه:

– أتريدني؟

هززتُ رأسي بإيماءة موافقة.

وهو يشير إلى نفسه: هذا أنا.

أحسست بارتباكٍ لا أعرف بواعثه:

– كنت أنتظرك.

أعاد القول: هذا أنا.

لم يغادرني الارتباك.

دون أن يجاوز لهجته الهادئة، المتباطئة: إذا انتظرت فلا بد أن تعرف لماذا!

ثم، وهو يهزُّ إصبعه: لا تعد حكاية الراعي وتخويفه من الذئب.

أزمعت أن أدخل عالمي، أغلق الأبواب والنوافذ، لا أتيح لأحدٍ رؤية ما أراه، أمنع نفسي من مراقبة تصرفات الآخرين. أغلقت الباب بالمفتاح، استلقيت على ظهري فوق السرير المعدني، أحدِّق في السقف، أتخيَّل، الخيال يتيح لي الانفراد بنفسي، بما كنت أشعر بحاجتي إليه. تصورات كثيرة، شكَّلت العالم الذي أعيش فيه، أرتاح للبقاء داخله، كمن تلبَّست الروح ما أحيا فيه من أشياء جامدة؛ الباب، السرير، اللوحة على الجدار، اللمبة، أشكال كثيرة من نشع الجدران والسقف وقطع الأثاث المتناثرة حولي، تنشأ بينها علاقات، أرى فيها ملامح وقسمات، أرقب تحرُّكها، تتحرك الأشكال على الجدار، أو أتخيَّل تحرُّكها، أصنع دنيا أجد في التعامل معها ما يبعدني عن الهواجس والمخاوف والمحاذير.

لا أنظر إلى المرأة بعينَي الخيال، أتخيَّلني في وضعٍ أختاره، ربما تختلف صورة الخيال عن الصورة الحقيقية.

أذكر «أفق البحر»، قصة لي عن المينا الشرقية، تحوَّلت مساحة المياه بين السلسلة وقلعة قايتباي إلى بناياتٍ ومآذن وأبراج وقِباب وحدائق، تبدَّلت الصورة تمامًا، القصة حلم طفولة، وجد تطابقًا في حلم حمدي الشيمي في «رباعية بحري».

سادت المخيِّلة، فصارت الدنيا غير الدنيا، غاب صيادو السِّنارة والطراحة والجرافة، وتناثر البلانسات والفلائك، ونداءات باعة الفشار والفريسكا، والمتأملون — في أثناء جلستهم على الكورنيش الحجري — أفقَ البحر، تحوَّلت مساحة المياه إلى حي كامل، مدينة صغيرة، علت أسوارها، مقصورة على الملاك والزائرين لهم، من يعبر الأبواب يخضع للتفتيش، بما يشعره بالغربة.

جريت بالقلم على النوتة الصغيرة، أكتب أسماء؛ سنتياجو في «العجوز والبحر»، علي في ثلاثية «غرناطة»، زنوبة في «قصر الشوق»، زوربا في رواية «كازنتزاكس»، ريري في «السمان والخريف»، ليلى في «الباب المفتوح»، مبروك في «عودة الروح»، صالح ورفاقه في لوحات «المعذبون في الأرض»، سعيد مهران في «اللص والكلاب»، أحمد منصور في «الخيط الأبيض»، «حوذي تشيخوف»، مبروكة في «الرجل الذي فقدَ ظلَّه»، «أحدب نوتردام»، محمد

أبو سويلم في «الأرض»، عزيزة في «الحرام»، ضحايا صهريج غسان كنفاني، مئات الناس، شغلتني أحوالهم، تملَّكني الإشفاق والتعاطف، والرغبة في المساندة، والتغلب على الإحباط والإملاء والقهر، هي الظروف نفسها، أو ظروف مشابهة، تعانيها المينا الشرقية، سجَّلت الأسماء في النوتة الصغيرة، أراجعها بالقراءة، أهتف بطلب الغوث، يبدون استجابة، يعينون الخيال في إزالة الأسوار، والعيش فيما يخصُّنا.

غوامض يصعب فهمها

حين أصحو، أعرف أني أفقت من حلمٍ، وأنَّ الأحلام زالت، يستغرق الحلم زمنًا طويلًا من الوقائع؛ التي يغيب عنها الترابط، أنظر إلى ساعة يدي، أعرف أنَّ النوم استغرقني دقائق قليلة، كل ما رأيته في المنام حدث في هذا الوقت القليل، قد يعبر الحلم في ومضة يصعب التوقُّف أمامها، أو تأمُّلها، وقد يطيل البقاء في الذاكرة، لا يغادرها.

غالبية الأحلام تأتي في اللحظات، ما بين اليقظة والنوم، أشعر بما حولي، أدرك — عند الصحو — أني كنت نائمًا. من يواتيني في الحلم، لا تبدو ملامحه، كما ألتقيها في الصحو، تغيب التفصيلات والقسمات، هو الشخص الذي أعرفه، وإن لم يكن الشخص نفسه تمامًا. الحلم غلالة تخفي المنمنمات، ربما تختلط الملامح، تومئ إلى ما أعرفه، مَن أعرفه، وإن غاب الوضوح؛ الحلم لا يهب الصورة كاملة.

معظم الأحلام أنساها، يبقى من الحلم ما يشبه التشوُّش، لكن تفصيلات الحلم تغيب، أستعيد الواقعة من ألِفها إلى يائها، أربط بين الصورة الماثلة في الذهن بالحركة والانفعال والحجرات والردهات والممرات والأقبية والسلالم والمآذن والميادين، ربما استيقظت على أحلامٍ مشوشة، تختلط فيها الملامح والنداءات والهتافات والصرخات. أتململ بين النوم والرغبة في الصحو، أحاول تحريك أطرافي، أهزُّ رأسي كأني أنفض ما صحوت عليه، لا أعرف بماذا حلمت، لأني لا أتذكره، أنسى الكلمات والتصرفات، أضع رأسي تحت الماء، أتأكد إن كنت خرجت من الحلم.

ربما أفقت على صوتٍ يناديني، الصوت أميِّزه بأني أعرف صاحبه، أهتف بعفوية: «من؟» يمتصُّ السكون سؤالي.

أصحو على هاتفٍ، أهبُّ مفزوعًا، أتلفَّت، أحاول تبيُّن مصدر الصوت، يبدو كأنه لأمي، أتذكر — على الرغم من موتها — نبرته المشفقة، تحثُّني على الصحو، ربما وصل الصوت

إلى سمع جارة الطابق الأرضي، يتخلَّل إلقاءها تحية الصباح خنفٌ واضحٌ، هو ما يسري في الهاتف الذي أستيقظ عليه.

يختلط ما أراه، لا أفرق بين ما هو حلم، وما هو حقيقة، ما أراه في النوم، وما أعيشه في اليقظة، تتناوشني التخيُّلات والأحلام وأحلام اليقظة.

لا أبوح بأحلامي لأحدٍ، لا أطلب لها تفسيرًا، حتى الكوابيس أعيشها، أغالب ما يتناوشني فيها من الخوف والفزع والرعب، ما أنساه تمامًا، أو تشحب تفصيلاته، وما تظل تفصيلاته واضحة في ذاكرتي.

وقفت للصيد على مكعب أسمنتي في المينا الشرقية، جذب السنارة ما لم أتبيَّنه، أخذني إلى البحر، غاص بي إلى الأعماق، رأيت ما لم أره من قبل من الحوريات، وأنهار اللبن والعسل، وأنواع الورود، الأشجار الكثيفة، الأغصان والأوراق، والأضواء الملونة. مساحة الشرفة متر في متر، تفصل بين شقق بنايتنا في شارع إسماعيل صبري، تصل المساحة المقتطَعة بزاوية من شقتَي الطابق الأول، أجلس فيها، أخلو للقراءة والكتابة، أطلُّ على الشارع من فجوة العمودين المتقابلين، يعلوهما أفريزٌ مزيَّن بالمقرنصات والنقوش، يأخذني الشرود، دون توقُّف عند معنًى محدد، أقف وراء الشرفة، أردِّد ما أستمع إليه من هتافات المتظاهرين، أو مريدي الجلوات القادمة من أبو العباس إلى جامع الشيخ إبراهيم، أنظر — في جلستي وراء العمودين الحجريين — إلى الحياة في أسفل، المارة والدكاكين والباعة الجائلين ومواكب الختان وشِوار العروس.

أسير في ميدانٍ واسع، على جانبيه بنايات مختلفة الطرز، تتفرع منه شوارع فرعية، لا أعرف الميدان، ولا إلى أين تمضي الشوارع المتفرعة منه، أميل إلى شارعٍ طويلٍ، لا يبدو غريبًا، لعله في وسط البلد، المنشية وما حولها، المحال على جانبَي الطريق والواجهات الزجاجية واللافتات. أهمل إشارات المرور، أتجاهل السيارات في اندفاعها، الفرامل المفاجئة والكلاكسات والتحذيرات والشتائم. تتملَّكني الحيرة: «الطرق متقاطعة، أي الشوارع أختار؟ ما ينتظرني في نهايته؟»

لما صحوتُ، كانت قبضتي مضمومة، تذكرت استرخائي في انتظار جذبة السِّنارة للصيد، أتشاغل بالتطلع إلى البحر الحصيرة وأسراب الطير والبلانسات وصيادي الجرافة، وعلى جانبَي الأفق لسان السلسلة الحجري، وقلعة قايتباي، ومئذنة أبو العباس تجد لأعلاها موضعًا بين بنايات بحري.

وجدتني جالسًا على المدرج الحجري بمسرح كوم الدكَّة الروماني، أتطلَّع إلى الأفق من جلستي على كورنيش المينا الشرقية، أحدق في الهلال المتبقي من القمر، أطل — من زيق

النعش المغلق — إلى مشيِّعي جنازتي، أميز أسرتي وأقاربي وأصدقائي، لا أعرف الكثيرين، الجنازة صامتة، تتخلَّلها أحاديث هامسة.

أسير في طرقاتٍ يشحب ضوءُها، تتفرَّع إلى ممرات ضيقة، متداخلة، تفضي إلى قاعة واسعة، تتفرع منها ردهات، تحيَّرت لحظة: «أيها أسلك؟!»، ظلمة حالكة، لا أتبيَّن فيها شيئًا مما حولي.

روى لي صبحي بهجت عن الدرويش حسن مستجاب، وما جرى بينهما في أثناء نومه، حدَّد اسمه وسحنته وتكوينه الجسدي وموضع إقامته، لصق الجدار، أول شارع الموازيني. طلب أن يدفنه في مكانٍ حدَّده، في المسافة بين جامع أبو العباس والدحديرة خلف الجامع. أعاني انفصامًا بين ما أحاول بلوغه، وما يصدُّني، بدت الأحلام بديلًا لما يصعب تحقيقه، أغمض عينَي على ما أتمناه، ما أعجز عن فعله، أمنِّي النفس بأن أفكَّ ألغازه في النوم، تواتيني الأحلام؛ بما يصعب تذكُّره، لا أعيه، تغيب دقائقه وتفصيلاته.

رأيتها جالسة على الكرسي المجاور للسرير، تبتسم، تبسط ذراعيها تأهبًا لاحتضاني: «أتذكرك، هل تتذكرني؟»

وفي نبرة مشجعة: «التقينا كثيرًا.»

صحوت.

رأيتها جالسة على الكرسي، عرفت أني لم أكن في حلمٍ، ولا هي طيف، أو رؤيا تشغلني، أصاخت السمع لكلماتي، أفسِّر لها تصرفاتي، وما تجد فيه خروجًا عن قواعد الجيرة.

ربما استيقظتُ على حلمٍ لا أتذكره، لكنه يترك في نفسي تأثيراتٍ حزينة، حينما يغلبني نومٌ ثقيلٌ، تغيب الأحلام، لا أتذكرها، كأنها لم تكن، في داخلي أصداء لأحلامٍ عشتها، لا أذكر تمامًا ما قلته في الحلم، ولا ما قاله مَن بادَلني الكلام، لا أذكر شيئًا مما حلمت به، كأنها فقاعات متلاشية، أما الكابوس فإنه يظلُّ في ذاكرتي، أستعيد تفصيلاته، أنهض مفزوعًا، أغالب لهاث الأنفاس، وتفصُّد العرق، وارتفاع ضربات القلب؛ بما يخيفني.

لا أعرف إن كانت رؤيتي له في اليقظة، أم في الحلم؟ عرفت أن رؤى الصحو تختلف عن رؤى المنام؛ رؤى المنام يغطيها الغيم. أرى في المنام ما لا أراه في الصحو، في الحياة من حولي أعيش حالة من أحلام اليقظة، لا أخلط بين حلم اليقظة الذي أكاد أعيه وألمسه، وبين حلم النوم الذي لا أكاد أتبيَّن تفصيلاته، يذوي ويتلاشى عقب الصحو، وانشغالي بأمور حياتي، حلم اليقظة يصنع بشرًا حقيقيين ومخترعين، ويصنع أطيافًا وأخيلة.

أحاول أن أتذكر الأحلام بروايتها لحظة استيقاظي، أثبِّتها في ذاكرتي، ربما تذكَّرت الحلم، أو استعدت منه مواقف متناثرة، أو لا يبقى سوى المشاعر الهائئة، أو المقبِضة.

ثمة أحلام تبدو — حين الاستيقاظ — واضحة، لأنها لم تكن كذلك، كأنها قد حدثت بالفعل، أرتبك لاختلاطها بأحداثٍ عشتها بالفعل. أسأل: هل كان مَن زارني في الحلم في هيئته الصحيحة؟ لماذا التقيته في ذلك المكان دون سواه؟ هل ظل المكان على صورته، أو تداخل فيه ما بدَّله؟

صحوت متعبًا، أجهدتني الأحلام التي كنت هيَّأت نفسي لها، تبدَّلت، داخلَتْها أشكال غريبة، تحوَّلت إلى كوابيس، حاولت مغالبتها. أزمعت ألا أتعمَّد الحلم، لا أطلب النوم وفي بالي ما أريد استعادته، أخلي الذهن — تمامًا — من المرئيات، أدرك — أحيانًا — أن ما أعانيه هو كابوس، فأحاول الاستيقاظ منه، أحرِّك يدي، وأجاهد لفتح عيني، أصيح، أصرخ، حتى أصحو، أو يوقظني مَن يفطن إلى معاناتي، تتداخل في الكوابيس نداءاتٌ وصيحات وصرخات وأوامر ومعارك، عانيت — في ثلاث ليالٍ متوالية — مطاردة حيوانات مفترسة، أشبه بالذئاب، لم أرَ الذئب إلا في الصور، قاربتني بشرر الأعين والمخالب والأنياب، لو لم يوقظني الخوف، ربما متُّ في مكاني.

أحاول الصحو للتخلُّص من الكابوس، لكن أنفاسه تظل في وجهي، أمدُّ أصابعي إلى الكومودينو المجاور، أشعر بملامستها، أثق أني أزحت الغطاء، لكن الكابوس لا يفارقني، كأنه احتواني تمامًا، أتلفَّت — لحظة استيقاظي — أتبيَّن ما إذا كنت نائمًا، أم أني صحوت. أفزع للطرقات العنيفة، أهبُّ في مكاني، يختلط الصحو والحلم والكابوس، لا أدري وقت الطرقات. في الكوابيس أجساد معلقة في المشانق، وطيور تنقر أعين بشر، فتعميهم، ورقصات محمومة تؤديها مخلوقات، ليست مما أعرفه من الكائنات، أهمُّ بالفرار، فيفاجئني اختفاؤها، وصحوي من النوم.

عند الصحو تزول الكوابيس، تغيب الرؤى القاسية والانفعالات والخوف والتهويمات والوساوس والهذيان والتعب. عَلت الأمواج في المينا الشرقية، جاوزت الكورنيش الحجري إلى داخل المدينة، ابتلعت البشر والبنايات والشوارع، وكلَّ ما يعترض طريقها، تبينَّت نفسي، أحاول الفرار، لحقتني الأمواج أعلى مئذنة أبو العباس.

رأيت — فيما يرى النائم — أني أغرق في البحر، الأمواج تحاصرني، أقاوم جذْبها لي، أغوص في الحلم، كما في داخل الموج، أطوِّح ذراعي، ألتقط أنفاسي بصعوبة، صوتي يعلو عن آخره بصيحات الاستغاثة.

حاولت أن أقاوم الإعياء، وأنهض من فراشي، ظللت — لثوانٍ — عاجزًا عن الحركة، أتلفَّت حولي كأنني أنوي الاستغاثة؛ بمن يعينني على النهوض.

رأيت مخلوقًا غامض التكوين والملامح، يقترب، تلفتُّ كأني أبحث عن منفذٍ للفرار، يد سدَّت فمي، وكتمت صوتي، لم أعد قادرًا على الكلام ولا الصياح، رأيتني فيما يشبه الحديقة، تطلُّ من الشجرة المجاورة أفعى هائلة، تهمُّ بالتحرُّك إلى ناحيتي، جريت بآخر ما عندي، ظللت أعدو وأعدو، أخترق شوارع لم أرَها من قبل، يترامى من خلفي وقع أقدامٍ تلاحقني، تطاردني، صحوت على يدٍ تربت صدري، تحشرجَ صوتي بالخوف: كابوس.

حين خرجت من الكابوس، صارعت ما لاحظت تأثيراته، وأنا أغالب ضيق التنفس، أعاني ما يشبه التهيؤ للموت. استيقظت على صراخ زوجتي، غاب آخر الحلم، لكنني عرفت أنَّ الصراخ أيقظني من إطباق راحتي على فمها، أخذنا الكلام — ربما — فقالت ما لم أستطع تحمُّله، أتبعت كلماتي وضع يدي على الفم المفتوح، لإسكات الصراخ. فاجأتني المخلوقات الوحشية الملامح، تراجعت — بوجهي وأعلى صدري — لتجنُّب مخالبها وأنيابها، أحرِّك جسدي، كلُّ جسدي حاول المدافعة؛ حتى الصراخ، كأنني صحوت على سماعه.

هل أصحو، فأرى المَشاهد التي تقتحمني الآن؟

لم يغادرني الكابوس، أنفاسه الثقيلة تجثم على وجهي وصدري، كأنه يصرُّ على إحاطتي بصرخاته وأنيابه ومخالبه، حدست أنه سيطول، وأني — ربما — لن أفيق منه.

أغمضت عينَي، وفتحتهما، أتشكك إن كنت رأيت شيئًا، معظم الأحلام أنساها، أخفق في طرد الكوابيس، تعلق بذاكرتي، تلازمني، كأنها التصقت بلحمي. في الصباح، سألتُ نفسي: لماذا كان الحلم بهذه البشاعة؟

كنت قد أغمضت عينَي على نية الثأر من فايز مصيلحي، أهوي بالساطور على الجسد المكوم، حتى تغيب ارتعاشاته، لم أتصوَّر أن يجرَّني الحلم إلى ما انتهى إليه.

لماذا الكوابيس ترتبط بالظلمة والقيعان؟ لماذا يعلو الأنين والصياح والصراخ؟ لماذا تبدو الملامح شائهة، تختلط بالأنياب والمخالب والأشباح؟

بعد أن تعددت الكوابيس صرتُ أخشى النوم، أتباطأ في التوجُّه إلى الفراش، تؤرقني الخيالات في ليالٍ كثيرة، أتوقع الأحلام القاسية والكوابيس، أحرص على الضوء الخفيف في الحجرة، يزيل الكوابيس، لا تواتيني.

عرفت أن الصحو هو ما يجب أن أحرص عليه، يسلِّمني النوم إلى استغراقٍ عميقٍ، ثم تتداخل الأحلام والكوابيس، يعلو إيقاعها بذهاب الاستغراق ودنو الصحو، يتداخل الإغفاء واليقظة، أبذل جهدًا؛ حتى أستعيد التنبُّه.

ربما أتذكر الحلم، أستعيد تفصيلاته، وربما أنسى الحلم تمامًا، حدث في المنام، تلاشى في الصحو، كأنه لم يكن. تدرَّبت أن أغمض عينَي على الحلم الذي أريده، أصحو في الموعد الذي أحدِّده، لحظة أن يتحوَّل الحلم إلى كابوس، ربما يسَّرت لي الأحلام حلَّ مشكلات كثيرة، ما يبدو صعبًا، أو مستحيلًا.

قسمت معظم يومي إلى وقتَين: النوم والحلم، تواتيني الأحلام في أوقات النهار، وأنا بمفردي، أو داخل المكتب، أو في قعدات السمر بالمقهى، أتمدَّد على السرير، أتأمَّل نشع السقف والجدران، أحاول النوم، أضع في ذاكرتي ما أريد الحلم به، ألتقط حتى الإيماءات والجزئيات والتفصيلات الصغيرة، أغمض عينَي على استدعاء البحر، يأخذني إلى رأس التين والأنفوشي وحلقة السمك، أشرد في المقامات والأضرحة والمزارات والموالد وحلقات الذكر والإنشاد والتسابيح.

استغرقتني — لأول مرة منذ وقتٍ طويلٍ — أحلامٌ تخلو من الأذى، ومتباعدة، تتيح لي ما لا ألتقيه في الكوابيس، الكوابيس تدفعني إلى الصحو.

آخر ما صحوت عليه، رجل غائب الملامح، يقتعد قمة الهرم، وأنا بالقرب من تدلي ساقيه، يحيطه الفراغ، والناس مشغولون في عمليات البيع والشراء، كما لو أن قعدة الرجل فوق الهرم لا تثيرهم، لا تحفزهم للفعل.

لم يكن الهرم في موضعه، تضاءلت مساحة الخلاء المحيط، الغلالة الشفيفة حول الرجل غيَّبت الملامح، حتى أقعدته أعلى الهرم، لا أدري إن اقتربت من القمة، أم استقرَّت أعلاها تمامًا، كأن ذراعيه، امتدتا إلى التقاء البحر والأفق. داخلني خوف لنظراته في الفضاء المترامي، عجزت عن التقاط ما يضمره في التحديق إلى نهايات الرؤية؛ الأسطح والبنايات العالية والمآذن والأبراج، وما لم أتبيَّنه في تلفُّت عينيه.

غالبتُ ما أعانيه، وأنا أدعوه إلى النزول.

لم يسمعني، أو أنه تجاهل دعوتي المحذِّرة.

لزم ارتفاع صوتي تعبيرات محسوبة باليدين، فلا أسقط، صحوت على انتفاضة جسدي، لا أعرف إن كان ما رأيته حلمًا أم كابوسًا، لكنه يعاودني؛ فيصعب مغالبته.

ملامسة الضفاف

لاحظت الدهشة في عينيك لإشارتي؛ بما يعني أني أنا الشخص الذي كنت تنتظره، لم أكن حدَّثتك عن نفسي، وكنت قد قرأت حديثك عن أسرتك؛ التي قدِمت من بولندا إلى الخليل، لا تقتصر حياتك على المستوطنة التي تعيش فيها، لكنك تهبط إلى المدينة، تتجوَّل في شوارعها وأزقَّتها، تنزل الأسواق، تجلس على المقاهي، تتردد على الساحات والخلاء ودور السينما.

عانيت ارتباكًا، وما يشبه الخوف في الأيام التي سبقت السفر.

الخليل.

فرض الخوف من العودة نفسه على لقائي بك للمرة الأولى.

لم أذكر غير اسمي والجنسية الكندية التي أحملها، رسائل متبادَلة — عبر الإنترنت — بين الخليل وكويبيك.

بدت ملامحك مغايرة لما تصورته، القامة المتوسطة، الممتلئة، العينان الضيقتان، الأنف الأقنى، البشرة البيضاء التي تناثر فيها النمش، الشعر الأسود المنسدل على الكتفين.

تتابع من ورائنا لافتات بالعربية والعبرية، أعرف بعضها، وحلَّت — بدلًا من التي كنت أعرفها — أسماء أخرى.

لم تكن العودة إلى الخليل مما أحاول تصوُّره، ألملم الجزئيات من المَشاهد التي أتابعها في التليفزيون؛ المظاهرات، نقاط التفتيش، الأسلاك الشائكة، تقاذف الحجارة والرصاص المطاطي، القنابل المسيلة للدموع.

أعرف أن المكان تغيَّر، طبيعي أن يتغيَّر، ظلَّ ناسه، وإن قدِم إليه ناس آخرون، تداخلت معتقدات وعادات وطرق حياة، لكنني لم أتصوَّر التغيير الذي حدث، لم أرسم له في ذهني ملامح محددة، يصعب أن تتشكَّل صورة ما أطمئن إليها. استعدت ما حدث بكل

تفصيلاته، فوهة المدفع الرشاش المطلة من الباب، دخل البيت أربعة أو خمسة جنود، لم يكسروا أو يدمِّروا، أخذوا ما في الأدراج، وما استطاعوا حَمْله من الأشياء الصغيرة.

أبطأ السائق قيادته لرؤية جنود يحملون الأسلحة، يقفون على مفارق الطرق والميادين. أشار الجندي الواقف خلف الكردون الخشبي بالتوقف، وعدم الاقتراب، التفتُّ — بتلقائية — ناحيتك، عندما أشار الجندي بيده: «يريد أن ننزل.»

– ننزل؟!

– نترجل؛ لنعبر نقطة التفتيش!

امتدت الأيدي بالأوراق، قلَّب فيها، تنقَّلت نظراته المتفحصة بين الوجوه أمامه، والوجوه في الأوراق؛ استعدت ما تصوَّرت أنني نسيته تمامًا.

المزروعات الممتدة في الآفاق من حولي، أعرفها جيدًا، أعرف أنواعها وأسماءها، التعريشة التي تغطيها خضرة النباتات المتسلقة، الأحراش، زهر الحنون الأحمر، العنب، التين، الزيتون، البرقوق، السرخس، الفترة ما بين ديسمبر ومارس هي فترة الجو البارد، واحتمالات سقوط الأمطار.

تابعت إشارة إصبعك إلى الأراضي والتلال الممتدة حتى الأفق: «أنت تشير إلى أماكن أعرفها جيدًا.»

وأغمضت عينَي كالمتذكِّر: «روى أبي عن المئات من أشجار الزيتون التي زرعها.»

وفردت ذراعَي إلى امتداد المكان من حولي: «هنا نشأت حتى تركت فلسطين!»

الهجرة قلَّصت أعداد الفلسطينيين، فرُّوا — بالخوف — إلى الأردن بعد ١٩٦٧م، لم أكن ضمن الفارِّين، اضطررت لمغادرة الخليل غصبًا، هاجرت بإرادتي للظروف المادية الصعبة، بِعْت معصرة الزيتون، ورحلت.

لم أكن أستطيع أن أتجنَّب الرحيل.

– لي ثلاثة أشقاء هاجروا إلى ثلاثة بلدان، وأختان أقامتا مع زوجيهما في الخليل.

تنبَّهت إلى اسم المكان عند نطقك له: ما اسمه؟

– كريات أربع.

– هذا المكان؟

– طبعًا.

– كان خلاء.

– ربما، أعرف الاسم منذ طفولتي.

ترامى عواء من موضعٍ لم أتبيَّنه.

– هل تعانون هجمات الضباع؟

– أنا لا أعرف حتى شكل الضبع، ربما كان ذلك في القديم.

كان الليل يأتي بعواء الضباع، نغلق أبواب البيوت، لا نغادرها إلا لضرورة، كنَّا نخاف هجمات الضباع، قلتُ: «هذه الساحة، هل هي في موضعها منذ زمن؟»

شوَّحت بيدك: «أُزيل بيت متهدم، تحوَّلت الأرض إلى هذه الساحة.»

– كان البيت لأسرتي، وكان آخر ما رأيت قبل أن أرحل.

البيت شيِّد قبل أن أولد، وربما قبل أن يُولَد أبي، موضعه متفرد فوق التلة الخالية بدلًا من شجرة زيتون، كان الناس ينسبون البيت إلى لقب العائلة، العابد، هو بيت العابد، لا أعرف الأسماء التي تبدأ باسم عبد ربه وتنتهي إليه، لكنها — وفق قول أبي — أسماء كثيرة، وقال أبي: «إن لديه أوراقًا رسمية تُثبِت حقَّه في البيت، وتتيح له استرجاع حقِّه.» أخرَج من بين ثيابه مفتاحًا هائلًا، قلت في دهشة: لماذا تركته، آلاف العرب ظلُّوا في المدينة.

– الآلاف قُتِلوا أو فرُّوا.

رفت على شفتيك ابتسامة تأسُّف: دفعت ثمن الخوف.

في تهوين: كنت في التاسعة.

تابعت ما حدث؛ لِبُعد المسافة، اقتصرت وقفتي على رؤية الجندي، وهو يدفع المرأة بالمدفع الرشاش، يلاحقها بركلاتٍ من قدمه، انبجست الدماء من وجهها وفمها، ارتجف جسدها المتكوم حول بعضه، قبل أن يهدأ تمامًا.

لم أعرف ماذا قالت، ففعل الجندي ما فعل.

هرع رجل — بابتعاد الجندي — ناحية المرأة المتكوِّمة، حملها على ذراعيه، لا أعرف إن كانت قد ماتت، أم أنَّ الرجل أفلح في إنقاذها، تمنيت لو أن الجندي ألقى سلاحه، وتعاركنا بالأيدي.

تنقَّل الجنود بين البيوت، يفتشون، يقلبون الأثاث، يمزقون المراتب والوسائد، يأخذون الأوراق والكتب والأقلام والحلي، ما لا يجمعه معنًى محدد. الوجوه مستغرقة، والأيدي مدلاة، والعجز يقتل الفعل.

قلت وأنت تسبقني إلى شوارع جانبية: «الشارع التجاري مغلق.» هززت رأسي مؤمنًا: «منذ حادثة الحرم الإبراهيمي.»

لاحظت — بطرف عيني — مغالبتك للمفاجأة.

زرنا الحرم الإبراهيمي، دُرنا حول السور الهائل، أطيل تأمُّل الحجارة الصلبة المصقولة المقطَّعة بشكلٍ هندسي، والمنارتين، والتكية، والباب السليماني، والباب الشرقي، والباب الغربي، وباب الدرج الأبيض، وباب المغارة، والمقامات السبعة لإبراهيم وإسحاق ويعقوب ويوسف وسارة ورفقة ولائقة ونسر صلاح الدين، زرنا مسجد ابن عثمان، ومسجد القزازين الصغير، ومسجد القزازين الكبير، ومسجد البركة.

«كنت أصحب أبي إلى الأقصى، أجاوره في الجلوس أمام المنبر. وهززت إصبعي: ليس هذا هو المنبر!»

قطبت ملامحك بالتذكُّر: أعرف أنهم استبدلوا به منبرًا جديدًا بعد حريق الأقصى.

وتنهدت: زمان!

ثمة ما أتذكره، وما لم أرَه من قبل، الكثير من المقدسات الدينية هي أماكن عبادة لليهود؛ حتى الحرم الإبراهيمي أذهلني تحوُّله إلى معبد لليهود، وضعوا فيه كتبهم الدينية، الصحن المكشوف في الداخل يضم الجامع المعقود، وأضرحة إبراهيم وسارة وإسحاق ورفقة، الغار الشريف يضم مراقد الأنبياء وزوجاتهم، له ثلاثة مداخل، أبوابها إلكترونية، أو لولبية، اللافتات على أضرحة الأنبياء بالعبرية، لم تكن هذه العدسات موجودة من قبل.

– هل تنقل كل شيء؟

أغمضت عيني، أستعيد ابتهالات ما قبل الأذان، الأذان السلطاني، الصلاة على النبي، الدعاء للأنبياء، التحميد، التسبيح، الأذان الأول، الصلاة.

سِرنا في الأرض الصاعدة والمنحدرة، لم تدعني إلى زيارة المستوطنة التي تقيم فيها، أعرف أنها واحدة من عشرات المستوطنات. هذه الأرض، لم يكن يطأ فوقها إلا أهل فلسطين، يتكلمون العربية، ويقرءون بها، يتصورون زوارًا، وإن لم يتصوروا أن يأتي الزوار، فيقيمون بينهم، البيوت قديمة من الطوب الأبيض، متناثرة فوق التلال، غالبيتها من طابقٍ واحدٍ، تحيط بها أشجار الزيتون. معظم شوارع المدينة خالية، إلا من العسكريين، أزياء كاكية وبنادق ومدافع رشاش، أعرف أن اليهود ليسوا فقط مَن يرتدون الملابس العسكرية، اليهود المدنيون يرتدون الثياب العادية، مثلي، مثل الناس كلهم، وإن ميَّزت ذوي الكوفية والجلباب؛ بأنهم فلسطينيون.

كنت قد نسيت الفصال في البيع والشراء، تلقِّي السعر الأعلى، تقديم السعر الأقل، رفع السعر من البائع، وتنزيله من الزبون؛ حتى يستقر السعر الذي يقبل به البائع والشاري، ليس السعر المغالى فيه الذي عرضه البائع، ولا السعر الذي قلَّصه الزبون، نسيت ذلك كله، ذكَّرني به الثمن الذي عرضه بائع الكوفيات، لكنه أصرَّ على ما عرضه.

لاحظت تلفُّت نظراتي بين البيوت في أعلى الطريق، والبيوت من ورائنا.

أدركت من سحن الواقفين والمارة والمطلِّين من النوافذ في البيوت المتقابلة، أن الأسر اليهودية تسكن في مواجهة الأسر العربية.

– حاذر من سقوط شيء!

أشرت إلى البيوت في أعلى: أعرف ما في الداخل.

وسألت متضاحكًا: هل قذفوا بهذه الأوساخ؟

كانت الأرض مغطاة ببقايا الطعام وعلب السجاير والكراتين وقطع الزجاج والحجارة، وكانت أوراق الشجر قد بدأت في السقوط.

ران على صوتك تأسُّف: الأطفال يعاكسون الناس في أسفل.

استطردتَ، وأنت تدفع بي لصق الجدار: الحجارة قد تسقط عليك!

مزجتُ ذكرياتي بالخيال، ما عشته، وما أتخيل أنه قد أضيف إلى المكان؛ التلال، البيوت القديمة، البنايات الحديثة، العالية، الطرق الصاعدة والمنحدرة، نقاط التفتيش، أشجار التين والزيتون والليمون والبرتقال واللارنج.

كلمتك عن الأشياء؛ التي يحرص العرب من أبناء فلسطين على اقتنائهم لها، في داخل الوطن أو خارجه؛ مفتاح بيت، مستند مِلكية، قصاصة جريدة، صور أشخاص، وكل ما يذكِّرهم بالأعوام القديمة.

ملاحظاتك المتوالية، وصمتك عن ملاحظاتي، لم تتيحا لي أن أشير إلى معنى لقائنا، تصورت أنك تتعمَّد التجاهل، فيغيب ما يجب تذكُّره.

تخلَّل حواراتنا قولك: «أريد أن أعرف شيئًا عنك» كان يجب أن ألتقط الخيط، أكرُّه حتى نهايته، لا أفلت حتى التفصيلات الصغيرة، الإرجاء إلى ما بعد يفوِّت فرصًا كثيرة، أزمعنا أن تستغرق زيارتي أيامًا تأذن بالألفة والبوح، لكن توالي الأيام، تقضِّيها، أنساني حتى القول: إني من الخليل، من الأماكن التي ظللتَ صامتًا، وأنت تروي، وتوضح، وتبدي الملاحظات.

تصاعد في نفسي ما لم أبُح به، لماذا بقيت على صمتك، وأنا أحدِّثك عن البيوت والأسواق والشوارع والأزقة والشجر والحقول؟ لماذا لم تتكلم؟ حين قلت: «الخليل هي مدينتي؟»

شمس الليل تؤذن بالمغيب

تنبَّه على قرقعة عجلات «البنز» على الأرض الحجرية، اتجهت نظراته إلى أول الشارع الصغير، ينتظر رؤيته. عرف موعد قدومه إلى القهوة، وانصرافه منها، يغادر الحلقة إلى أبو العباس لصلاة العصر، يعبر الميدان — بعدها — إلى شارع السيالة، حتى ناصية العوامري، يدخل قهوة الزردوني، عرف الكرسي الذي يختاره الريس المغاوري إلى يسار المدخل، يكتفي بالجلوس على الرصيف، ربما لأن الجرسون مدين يعرف موعد قدومه، فهو يسرع بالصينية فوقها كوب ماء، وفنجان أعشاب مغلية، لا يبدِّله، يتلفَّت حوله — بعفوية — كمن يبحث عن شخصٍ ما.

أول مرات قدومه إلى القهوة داخَله قلقٌ، لم يعرف له سببًا محددًا، وإن انعكس في الشرود، وتشتُّت الأفكار، واستعادة الكلمات التي ينبغي أن يردَّ بها.

نصحه الباعة في الحلقة — قبل أن يلبي دعوة الريس المغازي — أن يُظهِر الموافقة على ما يقوله، حتى لو بدا في الكلمات ما يثير التساؤل أو القلق، إبداء الموافقة شرط لضمان العيش، يفارقه ليخلو إلى نفسه، يناقش ما يجب أن يفعله. مضى المغازي إلى الكرسي، الذي خصَّصه له صبيانه، يختلف عن كراسي بقية معلمي الحلقة، استبدلوا بالكرسي المجدول من الخوص كرسيًّا، يكسوه قماش مخملي أحمر، وتغطي مسنداه خيوط بلون الذهب، إن قام عنه الريس ظل خاليًا، حتى يعود إليه. أدار قبضته حول كوب القرفة بالزنجبيل، مشروبه الذي يفضِّله، أعاده إلى الطاولة، والتقط مبسم النرجيلة، اكتفى بالقول وهو يشير إلى نفسه: أنا بلال عبد ربه.

نفض المغازي مبسم الشيشة أمامه؛ كمن ينفض الهواء: أنت ابن حلال.

وفي لهجة مبطَّنة بالود: «أنت تختلف عن سواك ... أطمئن إليك.»

– الطمأنينة؟

لم يلحظ قوته؛ التي لاحظها الريس المغازي ... يعيش حياته؛ بما تيسِّره له الأوقات، نبَّهه الريس إلى قدراته، ربما شاهده، وهو يحمل الطبالي في الحلقة، أهمل نصيحة الصياد عتريس الفشني، من أنه إذا نفَّذ ما يطلبه الريس المغازي فسيصير قاتلًا، يستطيع أن يفيد نفسه، ويفيد الريس أيضًا.

قال المغازي: انسَ القرفة بالزنجبيل ... كوب الشاي بالحليب هو أجمل ما نبدأ به يومنا.

– هل رأيتني في الحلقة، أو في قعدة الزردوني؟ أو أن رجالك أبلغوك بما قد لا أعرفه؟ أخذته الفكرة، شغلته عن المخاطر التي تواجهه، خصَّه بإقبالٍ أكثر من إقباله على بقية الرجال، كلَّمه — في خلو الحلقة وقت الغروب — عن رؤيته له — للمرة الأولى — في مولد أبو العباس، المطواة بديل للسيف والشومة وسلسلة الحديد، مَن تلامسه يترك الساحة الدائرية، تلاصق حولها الزحام.

تعدَّدت جلساته إلى الرجل، يبدي الخضوع والتذلُّل، يشتري ولا يبيع، لو أن الريس سأله فيما يشغله، ربما لا يجد ما يقوله، يأخذه الشرود، وتصور ما ينبغي فعله.

كان صوت ارتطام الأمواج بالمصدات الأسمنتية يترامى من النوافذ العلوية الصغيرة، قال الريس وهو يتهيأ للقيام: أريدك في أمرٍ.

لم يجد في نفسه حتى القدرة على السؤال، ولا مناقشة خطورة ما يدفعه الريس إليه، استبدل بنظرته المتعاطفة، المشفقة، نظرة صارمة لم يعهدها من قبل.

لاحقه بالقول، وهو يتهيأ لمغادرة الحلقة: «أراك صباح غدٍ في قهوة الزردوني.»

رُوِيت عن أفعال الريس المغازي حكايات كثيرة: احتاز الأموال، وظلم الحقوق، ونسب إلى نفسه ما يملكه سواه، وتناقل الناس أخبار القتلى الذين استُلبت أرواحهم في ظروفٍ يعلمها الجميع، تشير الإيماءات إلى البواعث الحقيقية والأيدي المنفِّذة، لكن الصمت يظل سادرًا، ما رأته الأعين كوابيس لا سبيل إلى استعادتها، قيَّد أعوانُه الصيادَ أبو علي سليمان في فلوكة، دفعوا بها إلى البحر، يقتله الجوع والشمس، أو تبتلع الأمواج الفلوكة، إن دخل على مأمور قسم الجمرك، انتصب له واقفًا، وبسط ذراعيه لاحتضانه.

يتنقل الريس بين الحلقة والقهوة، يجلس بمفرده أو يحيط به أعوانه، أوامره كلمات قليلة، ينفِّذها الأعوان بلا سؤالٍ ولا مناقشة، من يتردد ربما خسر حياته. يكتفي بإلقاء السلام من دون أن يلتفت، يظل صامتًا، منشغلًا بالتحديق في الفراغ، يعزل نفسه، حتى عن صيحات لاعبي النرد والدومينو والطاولة. يعود إلى ما حوله بقدوم الجرسون مدين،

في يده صينية نحاسية صغيرة، فوقها كوب ماء وفنجان أعشاب مغلية، في اليد الأخرى نارجيلة، ينحني يسوِّي الفحم بالماشة، يتبادلان كلمات هامسة، قبل أن يغيب الجرسون في الداخل.

مبسم النرجيلة بين شفتيه في الحلقة، وعلى القهوة، والأوامر والملاحظات والهمسات والفصال، وعلى بركة الله، تتعدد أوامره بالقتل، وإسالة الدم، والضرب الذي لا يخلف أثرًا، والشتم القاسي، والتهديد؛ لكلِّ خطأ عقوبة تساويه، ما يقضي به يعنى أعوانه بتنفيذه دون إبطاء، لا يبدي اهتمامًا بمصائر القتلى، ولا بالمخاطر التي يعانيها الأعوان.

يتناثر الأعوان في المساحة الممتدة أمام مجلس الريس، يترقَّبون نداءه بالاسم، أو إشارته بهزة الرأس، أو باليد، يهرع مَن يدعوه، ينتظر الأمر متشابك اليدين، متدلي الذقن على الصدر.

لم يعُد يرى مصيره إلا في الجلوس بالقرب من مجلس الريس، يقذفه بالأوامر، وعليه التلبية، لا يذكر أنه التفت ناحيته إلا ليلقي الأوامر: «اضرب فلانًا، لا تترك فلانًا قبل أن تعجزه عن الحركة ... ماء النار سيمنع فلانة من التباهي بحسنها.» تضايقه لمعة عينَي الريس، وهو يروي له ما فعله، يستحثه — بإيماءات رأسه — على استكمال روايته، تتفحَّص نظراته ما لم يقله، أو أخفاه: «لم أرَ ما فعلتَ، فارِوِ لي ما يضعني في قلب الحكاية.»

دخل خناقة في ميدان المنشية، سقط بطعنة سكين ذهبت به إلى المستشفى الأميري، طال ترقُّبه زيارة المعلم، سبعة أيام بلياليها، غادر المستشفى دون أن يسأل، أو يصحبه أحد، عرف أن المعلم يهمله، يستصغر شأنه، وأنه — في نظره — بلا قيمة. تنبَّه لقول الجرسون طاطا: الريس يطلب من رجاله أن ينفذوا أوامره بلا أسئلة.

– لا أرفض العراك مع شخص يعادي الريس، لكنني أحب أن أعرف السبب.

وعلا صوته بالحيرة: لماذا أتعارك؟

أردف كأنه يخاطب نفسه: أنا لا أرفض حتى القتل، بشرط أن أعرف لماذا؟

قال طاطا: أنت لم تتكلم، وأنا لم أسمع.

ووشى صوتُه بنبرة تحذير: مِن طبع الريس أنه لا يحتمل الأسئلة!

إذا كان التخلص من أعداء الريس حلقات لا يعرف عددها، تتواصل بلا نهاية، فإن التخلص من الرجل نفسه هو النهاية، التي يسترد فيها الأتباع — صار واحدًا منهم — نفوسهم، لا بد — كي يحتفظ بحياته — أن يختفي الرجل، لا يجد الأتباع من يخضعون لأوامره، ويسرعون لتلبيتها.

لم يقتل في حياته، وإن تمنى أن يقتل الرجل، يتولى هذه المهمة بنفسه.

رفع مدين النرجيلة بيدٍ، والصينية باليد الأخرى، وعاد إلى الداخل، فطن إلى أنَّ ما يعد له حان، فتهيَّأ للقيام؛ سبقه في ترك القهوة.

مال إلى شارع العوامري، في تقاطعه مع السيالة، بدا شحوب الضوء في نهاية الشارع الضيق موضعًا مناسبًا، تابع خطوات المغازي من القهوة — عبر الحواري — إلى الحلقة، طالعه عند دخوله المساحة الرمادية.

تبيَّن — من نظرة الرجل — أنه لا يريد العراك، يشغله الفرار بحياته.

لم تكن المعارك بينه وبين من يوصيه به المغازي تستغرق أكثر من ثوانٍ، يلوح بالمطواة في وجه الرجل، قبل أن يجد الموضع الذي ينفَذ بها إليه.

إذا بدأ الضرب، فقدَ السيطرة على نفسه، الضربة الأولى تمتد إلى الضربة العشرين والثلاثين.

ربما أخطأ قذفة المطواة في صدر الرجل، أو أنه تعمَّد أن يخطئ، النظرة المتشكِّكة في عينَي الريس المغازي لم تحجب شعوره بالراحة؛ حينما قذف الرجل بنفسه في بابٍ مفتوحٍ خلفه، أفلت بحياته دون أن يفطن إلى مصدر الطعنة التي أخطأته.

إذا واجه عدوًّا لم يهيئ نفسه لملاقاته، فإن الهتاف باسم الريس المغازي يكفل طلوع عشرات الأتباع، من البيوت والدكاكين والقهاوي والمساجد والمقامات؛ وحتى من الخرابات، يشاركونه العراك ضد المعادين، يردُّونهم إلى ما بعد الحي، يعودون إلى أماكنهم بعد أن يطمئنوا إلى سلامته.

أذن له أن يحمل اسمه في الحلقة وخارجها، هو من أعوانه عند البيع والشراء والجلوس على المقاهي، وفي حلقات الذكر وموالد أولياء الله، اسم الريس حصَّنه من الاعتداء، أو نية الغدر، يتيح له الطمأنينة والسلام.

لَّما كرَّر الريس عرضه، بدت المشكلة حلقات ينبغي فصمها، في لحظة لا يتوقعها، ربما قبل أن يتجه إلى البحر وقت الفجر، أو عقب عودته من الصيد، أو عند جلوسه على القهوة، يستدعيه صبيان المغازي للقائه، يعرف أنه سيأمره بفعل ما يجب عليه فعله، من يعمل في خدمة الريس ليس له في نفسه حقٌّ، هو خادم ينفِّذ ما يُطلَب منه، لا يسأل، ولا يناقش، ولا يبدي رأيًا، حتى إن كان موافقًا. نزع الريس النرجيلة من فمه، كست ملامحه النظرة الصارمة: «أرجو ألا تخطئ في المرات القادمة.»

استعاد المشهد من بداياته، القبول بالخطوة الأولى يفضي إلى الخطوة التالية، لا تنتهي إن ظل الريس على عداواته، لا شأن له بما يدفعه للمشاركة فيه، أخطاء القذفة — في مرة

تالية — ربما نقل عداوة الريس له، تجرُّ وراءها عداوات الأعوان، لا يستطيع حتى الاختفاء في البيت.

تصاعدت في داخله كراهية هائلة، اندفع ناحيته بكل ما يكتمه نفسه. تلفَّت المغازي — بعفوية — حوله.

كان المكان خاليًا، إلا من درويش راح في النوم على بسطة البيت المجاور، حاول أن يقفز إلى داخل البيت، مدَّ بلال عبد ربه قدمه، تعثَّر المغازي، وسقط من طوله، تلاحقت ركلات بلال في الجسد المتكوم، حتى تغطى الجلباب بالدم المنبثق من الوجه والأجزاء الظاهرة من الجسد.

رفعه بيدين متقلصتين، وجَّه إليه ثلاث ضربات متوالية بجانب فكِّه الأيمن، مال وجه المغازي، لوَّح بلال بمطواة، أدارها حتى وجد منفذًا في العنق، فسدَّدها، لم يستطع المغازي الدفاع عن نفسه، دفعته الضربات المتلاحقة إلى الصراخ والصيحات المستغيثة. حاول المغازي — في صراخه — كتم انبثاق الدم، بدا الصدر مكشوفًا، توالت الطعنات حادة، نافذة، فسقط الرجل من طوله. ألَّف الناس دائرة لصق الجدران، وعلى أبواب البيوت والدكاكين، وتقاطع العوامري مع السيالة، يشاهدون ما لم يتوقعوا رؤيته، حلَّ الخوف في النظرات المتابعة، اقتصرت ردود الأفعال على المُشاهدة، لا محاولة للتدخل، سكتت الكلمات والتصرفات، لم يعد إلا صيحات الغضب ترافق كلمات بلال، وتأوهات المغازي المستذلة.

بعزمه شاط بلال الجسد المتكوم على مؤخرته، حاول الجسد أن يتصالب، لكنه تطوح كمن أصيب بدوارٍ، اختلج، وسقط من طوله، ثم سكن.

هرولت خطوات بلال عبد ربه، حين وصل إلى انحناءة الطريق لرأس التين، استدار خلفه، ألقى نظرة سريعة، كمن يتوقع ملاحقة.

إيقاعات

خطرت الفكرة في باله كالومضة، لم يكن — في تلك اللحظة تحديدًا — يفكر إلا في اللقاءات التي تملأ أيامه الأربعة في بيروت، محاضرتان، وربما ثلاث في اليوم الواحد، وأحاديث في وسائل الإعلام، ولقاءات بمسئولين، لم يعد نفسه؛ حتى لمجرد السير في شارع الحمراء الذي يحب محاله ومقاهيه وصخب الحياة فيه.

ومضت الفكرة، استعادها، أزمع أن يخضعها للمحاولة، إذا جاوز الإخفاق، فهو يستعيد الثقة الغائبة، وإذا لقيت المحاولة صدودًا؛ فعليه أن يظل السر مقيدًا داخل حجرته في الفندق، القيد نفسه؛ الذي خلَّفه في حجرته في الشقة المطلة على نيل الزمالك. قال الطبيب: «التردُّد يؤدي إلى الحوادث.»

كان يقصد حوادث المرور، لكنه لاحظ أن المعنى ينسحب على كل شيء.

تحسَّس — بعفوية — موضع العملية الجراحية في صدره، كيف يواجه النظرات المشفقة، أو المشمئزة؟ وبَّخ نفسه لأنه استدعى الفكرة، وقلَّبها؛ يدعو المرأة إلى زيارته في حجرته، يقضيان معًا وقتًا لم يستمتع بمثله من قبل. «أخادمة الغرف؟»

يفرُّ من المشكلة الحقيقية؛ فيثير مشكلات هو في غِنًى عنها.

قضى موظف الاستقبال على تردُّده: «هل يقدم نفسه باسمه الحقيقي، أو يخترع اسمًا يختفي وراءه؟» طلب الموظف جواز السفر، تأمَّل البيانات، وأودعه خانة مفتاح الحجرة: «سنعيده عند نزولك.»

أضاف الموظف بلهجة مرحِّبة: كم عدد الأيام؟

– ثلاثة أيام أو أربعة.

ثم وهو يتكلَّف ابتسامة: «مهمة عاجلة.»

استشرفت نفسه حياة غير التي يحياها، غلَبته الحيرة، فهو لا يقدر أن يفعل شيئًا، ما يؤلمه أنه لا يقوى على البوح، السر في داخله، لا يكشف عنه، يقاوم الرغبة في أن يتكلم مع أحد، يفضُّ عما في نفسه، يحكي، ويحكي، لا يسكت حتى يهدأ، قيمة الصمت أنه يخفي ما نعانيه، لو أن الملامح أظهرت ما في النفس، ما قدِم من القاهرة، العجز معه يصحبه إلى أي مكان يقصده، ليس في جسده، ولكن في مواجهة الظروف.

قالت فادية: ماجد يستهلك نفسه في إظهار الغضب، لكنه لا يؤذي.

وعلت ضحكتها، فاهتز صدرها: ماجد كائن مسالم.

ينظر — في استياء — إلى نظرتها المستخِفة، تجيش مشاعره، يعلو صوته بما يمور في داخله، يبدي رأيه، ويعلن ما ينوي فعله، الابتسامة على شفتيها تزيد من إحساسه بالغضب، يغلبه ارتباك لا يفلح معه في أن يقول شيئًا، يغمض عينيه، يروح في عوالم يصعب عليه تبيُّنها، خليط من المشاعر والذكريات والميل إلى الفضفضة، حتى المواقف التي لم تشغله في وقتها، ونسيها، تستعيدها ذاكرته، وتملؤها. أهمل النصيحة، بأن يلغي سفره إلى بيروت، أو يؤجله. تحدَّث علي عبيد عن اتساع حرب الميليشيات، والقتل على الهوية، داخله شعور لم يستطع تفسيره، كأنه التحدي، أو الرغبة في المغامرة، تأكيد ما يطمئن إليه في نفسه، ولا يراه في أعين الآخرين؛ حتى ضابط الجوازات في مجمع التحرير لم يوقِّع على الموافقة إلا بعد أن دفع إليه علي عبيد بطاقة التوصية.

أدار الولد النوبي الملامح مفتاح الحجرة، ودفع جرار الشرفة الزجاجي، أطلَّ من الطابق التاسع في الفندق ذي الطوابق العشرة في أسفل طريق الكورنيش، في زاويته المطلَّة على صخرة الروشة، كأنها ساقا عملاقٍ في قلب المياه. وأكشاك الملابس والكاسيتات والطعام، وعربات الفول والترمس والذرة متجاورة فوق الرصيف، ويتقافز في الزحام باعة الورد والفل والياسمين، ومياه البحر تمتد إلى نهاية الأفق، فوقها سماء صافية، تتخللها سحب بيضاء.

تأمَّل وجهه في مرآة الحمام.

التجاعيد دوائر أسفل العينين، وحول الفم، وتتباين مع شعره المصبوغ بالسواد، والبشرة باهتة، والوجنتان غائرتان.

استعاد الفكرة في أثناء وقوفه أمام المصعد، حرص على أن يتجه بنظراته — فور خروجه من المصعد — إلى الناحية المقابلة لكاونتر الاستقبال، يفطن الموظف إلى مكانته، فلا يهِبه الفرصة كي يلقي أسئلة، أو يعرض خدمات، هو واحد من نزلاء الفندق، لا شأن له بأحدٍ، ولا شأن للآخرين به، لكن: «كيف يجد ما يطلبه؟ كيف تنشأ العلاقة؟»

لو أن موظف الاستقبال، أو أي عامل في الفندق، فطن إلى ما أزمع فعله، فستؤذيه الفضيحة بما لا يتصوَّره. لحقه صوت عادل: «أريد نقودًا.»

اتجه ناحيته بنظرة غاضبة: «أنا أنفق على البيت كلِّه، وليس عليك وحدك.»

– أردتَ أن تصبح أبًا؛ لذلك ثمنه.

ثم، وهو يطرقع أصابعه: «أريد نقودًا.»

هزَّ رأسه دلالة الرفض، قال عادل: «إذا لم أحصل على ما أريد، فلن أضمن تصرفي.»

تفجرت في داخله رغبة في الشتم، أو في العراك: «افعل ما تشاء!»

وهو يزيح شهادات التقدير والأوسمة والميداليات عن الأرفف والجدران، ويقذف بها من النافذة المطلة على بقايا بناية متهدمة: «هذا ما أفعله.»

اكتفى بنظرة الذهول تملأ ملامحه، فكَّر في أن يمنعه، يصرخ فيه أو يدفعه أو يصفعه، لكنَّ العجز شلَّ تفكيره وتصرُّفه، خشي تصرفًا لا يتوقعه، ماذا يفعل لو أن الولد ردَّ إليه أذيَّته؟! يصفعه، فيرد عادل الصفعة بمثلها، ينتهي كل شيء، لا أبوَّة، ولا بنوَّة، ولا أسرة، لا أي شيء، يتمنى الموت.

قال بنبرة الإشفاق في قول علي عبيد: «أنت لا تعمل حسابًا للمستقبل.»

– معي ما يكفي المستقبل.

وتلكأت الكلمات: «يهمني أن أنفق ما أملكه في حياتي.»

ثم، وهو يصرُّ على أضراسه: «لا أريد أن يرثني ابني في مليم واحد.»

– أعطاك الله العمر ... لكنَّ الحرص على ألَّا يرثك عادل يثير التأمُّل.

– لماذا؟

يقلِّب الكلمات في ذهنه، فلا يجد إجابة محددة، يرفض لأنه يريد ذلك: «ما معنى أن أعمل وأكسب، ثم يرث أي أحد ما ضيعت العمر لتدبيره؟ يجب أن يعلم عادل وفادية أني قادر على اتخاذ القرار، أنا أرفض وأقبل وأمنع وأعطي، أتخذ قراري بالثقة كلها، أملي، إرادتي، لا تشغلني ردود الأفعال، ما أفعله ... هو حقِّي.»

اعتذر عن المرافقة بأنه يريد السير في شوارع الكويت بمفرده، سأل عن السوق، استعاد التسمية: واجف؟

– إنها مجرد سوق شعبية.

أهمل التحذير، وسأل عن الطريق.

مضى من ساحة الصفا. الأسقف الشبيهة بالقيساريات دفعت معظم المحال إلى إضاءة الداخل، غالبية البضائع قديمة أو مستعملة، وفي الوسط طاولات خشبية، فوقها ملابس نسائية ومفروشات وسجاجيد، استعاد زحام وكالة البلح.

قال الرجل: «أفهم ما تريد التعبير عنه.»

ثم، وهو يحدجه بنظرة تتوقع رد الفعل: «سأعد لك وصفة لا تخيب!»

غلبه الارتباك، أدرك أنَّ الرجل خمَّن عكس ما يعانيه، قال: «أنا لا أشكو ضعفًا.»

ابتسم الرجل بالحيرة: «ماذا تشكو إذن؟»

كان يضايقه التقاط تلميحه؛ بما يعانيه بمعنًى لا يتغير، تقتصر الأحاديث على ما يضيف إلى حيويته، وتقترن بالإيماءات والكلمات التي يكتنفها الغموض، ما يعانيه كائن في داخله، لا دخل له بمرضٍ، ولا يحتاج إلى شيء؛ مما يشيرون عليه به، شيء لا يدري مصدره، وإن استقرَّ في داخله، يثيره، يشقيه بالإحباط، وبأنه غير قادر على التصرف وعاجز.

قال البائع في شارع الحبيب بورقيبة: «أفهم ما تريد التعبير عنه.»

أضاف، وهو يقدم له حبة صغيرة: «خذ هذه، تجعل ما تعانيه من الماضي.»

وضع الحبة بين شفتيه، تبعها بجرعة ماء، تصاعد — في اللحظات التالية — ما لم يخطر له ببالٍ: خيالات ومشاهد ونشوة تقربه من الغيبوبة، سرى ما يشبه الخدر في أعصابه، أغمض عينيه في استسلام، تصور — بتأثير النشوة — أن أنفه طال، فكاد يسد الطريق، أبطأ من خطواته؛ حتى لا يصطدم بالمارة أو العربات، داهمه التوجس، فعوج أنفه بأصابعه؛ ليحقق انتظام المرور، خطر له أن يصرخ، ويغني، ويرقص، ويجري إلى حيث تذهب به قدماه.

عبر الطريق إلى الناحية المقابلة، استبدل البائع شرائط كثيرة حتى هزَّ رأسه بالموافقة، الصوت الأنثوي يتغنَّى بالعلاقة منذ بداياتها، يتعمَّد المط والتلكؤ والبحَّة المتحشرجة والأنفاس اللاهثة، مالت الرءوس، وتقاربت الأجساد، وتعالت الهمسات الصاخبة. قال البائع، وهو يقلِّب الشريط على الوجه الآخر: «أثق أن هذا هو ما تريده.»

ابتسم للتعبيرات والتعليقات؛ التي علِّقت على الدكاكين المجاورة للكاتدرائية بشارع الحبيب بورقيبة، دفع — في زيارته الأخيرة إلى تونس — أربعة دولارات، كي يكتب له البائع أمنية على بطاقة مزيَّنة بالورود، أطال التفكير؛ فيما يتمنَّاه لها، طلب البائع أن يترك العبارة، الأمنية، استقبلته بما اعتاد من الجفاء، فلم يتذكر البطاقة، إلا حينما فتشت في جيوبه، قبل أن يبعث البدلة إلى المغسلة.

نسي حتى ما قدِم من أجله إلى بيروت، وهو يجلس في كازينو لبنان، ينصت إلى المغنية الصغيرة، الممتلئة، تردد أغنية فيروز: «باحبك يا لبنان، ...» وثمة آلاف النقاط الضوئية تفترش مساحات السواد فوق الجبل، حرص على تناول ما يميِّز الطعام اللبناني: الكبَّة والتبُّولة والفتوش والحمص بالطحينة واللحم بالجبن وورق العنب والمحاشي والمتبلات، حتى الحلويات — على الرغم من الضغط والسكر — أكل البقلاوة والقطائف وعيش السراية والعثمانلية وزنود الست.

عانى كثرة الحواجز على مفارق الطرق، مدرعات، وسيارات جيب، وبزات عسكرية ذات ألوان متباينة، وأصوات الميكروفونات يتعالى منها التعليمات والأوامر، والشعارات مكتوبة بالبويات الملونة، والطباشير تملأ الحوائط، وأسفلت الطريق، وأبواب الدكاكين المغلقة، وسواتر البنايات المتهدمة والملصقات على الجدران، ولافتات القماش تصل بين أعمدة النور في تقاطعات الشوارع، تؤيد وتستنكر وتحيي وتبايع وتبشِّر بالخلاص، وصور الزعماء والقادة معلَّقة على النوافذ والمشربيات، والأعلام التي تنتمي إلى تنظيماتٍ يسمع عنها، أو لا يعرفها، أذهله الدمار في وسط بيروت؛ سوق الطويلة، وباب إدريس، وساحة البرج، البنايات المتهدمة، وفجوات الصواريخ، وثقوب الرصاص الواضحة على الجدران المتبقية.

أشار سائق التاكسي إلى النافذة التي كان يقف وراءها، وبيده بندقية يصعد بها إلى من يحدِّده التلسكوب، لم يعُد القتل على الهوية، ولا بعد إلقاء الأسئلة؛ لمن يجري بسرعة، أو يمشي ببطء، أو يتلفَّت، يصوِّب عليه دون أن يتلقَّى أمرًا، أو يعطي إنذارًا. استعاد التسمية: «قبرص؟»

أعاد فاروق معوض القول: «قربص ... هي غير قبرص.»

ثم بلهجة محرِّضة: «بها نبع ماء ساخن يتدفق من الصخر، لو أنك أكثرت من الغطس فيها؛ فالنتيجة مؤكدة.»

أشفق من الارتفاع الهائل الذي بلغته السيارة على الطريق الصاعدة، بدا الوادي في أسفل مفروشًا بالخضرة، تنتهي بالشريط الساحلي، الجبل الصاعد المتعرِّج نفسه، ارتقته السيارة في قريات، وإن تسربل الجبل العماني بالصخور والوحشة، واختلطت — في الوادي — مساحات الصخور والرمال وبقع الخضرة القليلة.

المياه تجري ساخنة إلى الدائرة الحجرية المتصلة بالبحر، تبلغ مستوى الركبة، تظل السخونة على ارتفاعها إلى خارج الدائرة، عشرات الأمتار في اختلاطها بموج البحر.

– من أين تأتي هذه العين؟

– من الصخور، البداية لا يعرفها أحدٌ، لكنها تنبثق من الصخور.

دلَّى قدميه في مياه الدائرة الحجرية، لسعته السخونة، فرفعها، تشجَّع حينما أبقت الفتاة قدمها في الماء، دلَّى قدميه، وتحمَّل الحرارة. تنبَّه على صيحة أربكته، كان الشاب ذو الأفرول الكاكي يتفحَّصه بنظرة مرتابة: «ماذا تريد؟»

أدرك أنه أكثر من التلفُّت؛ فيما يثير التأمل والأسئلة، غالب إحساسه بالارتباك: «أنا أتنزَّه.»

وهو يلكزه بكعب البندقية في جنبه: «تتنزَّه في منطقة عسكرية؟!»

المناطق متشابهة؛ الحواجز والمتاريس واللافتات والشعارات والميلشيات العسكرية. تعمَّد ألَّا يواجهه بعينيه، يخشى أن يلمح التخاذل في نظرته: «لم أكن أعرف.»

لم يعد قادرًا على الفهم، ولا الاستيعاب، ولا التصرف، ثمة شيء ينقصه، وإن لم يدركه على وجه التحديد، عانى ما يشبه شلل الإرادة، اختلطت الرؤى، والخيالات، والأصوات التي يغيب مصدرها.

أعاد الشاب لكزه بكعب البندقية، تأوَّه وسقط، واصل الشاب دفعه وضربه وهو يزحف، اعتمد على راحتيه وركبتيه حتى توقفت الضربات، وانحسر ظل الشاب، زمَّ شفتيه، وإن ظلَّ على تأمله، وهو يرقب الشاب مبتعدًا في وقفته المنعزلة وسط الميدان الصغير. كان ذهنه قد خلا من كل شيء.

في انتظار ما لا يأتي

أضع قدمَي على سلم القطار؛ حتى يتوقف تمامًا، أعبر ميدان محطة دمنهور إلى شارع الصاغة، أجاوز محطة الأوتوبيسات وفندق ذهب وكازينو الشريف وتقاطع شارع القلعة ومسجد الزرقا وفندق الربيع ومسجد الزواوي، أمضي في الشارع إلى نهايته، أميل — ناحية اليسار — في شارع المحكمة، على جانبيه أسوار حجرية وأبواب معظمها مغلق، وعربات نقل مصطفَّة جانب الأرصفة.

يطالعني الكوبري ومسجد أبو الريش، أستعيد ملامح جدتي؛ القامة الضئيلة، العينان الخضراوان، بقايا الشعر الأصفر المتداخلة مع البياض … تتناثر وتتلاصق تحت الكوبري، وبالقرب منه، عربات ميكروباس يجلس داخلها رجال ونساء، وتدور أمامها أسئلة وأجوبة ومناقشات ونداءات؛ أدرك أن الميدان نقطة تجمع لسيارات الميكروباس في انطلاقها، وعودتها من المدن والقرى القريبة.

تبطئ خطواتي، وأنا أجعل سور المحلج الهائل إلى اليسار، وإلى اليمين، البيوت المتلاصقة ذات الطابق الواحد، أو الطابقين، تفصل بينها شوارع ترابية ضيقة، يغيِّب الالتواء نهايتها، مدخنة وابور النور في نهاية الشارع، إلى يسارها الشارع المفضي إلى الترعة والطريق الزراعية.

قبل أن أبلغ الوابور، أنحني إلى الشارع الجانبي الضيق، البيوت الطينية، النوافذ الواطئة، روائح الطعام المنبعثة من الأفران والكوانين، البهائم العائدة من الغيطان، كومات القشِّ والحطب المتدلية من فوق الأسطح، التراب المختلط بالروث. أصعد السلالم الحجرية الضيقة، أخلف ثلاثة طوابق، ثم أدفع باب السطح الخشبي الموارب، أتخيل جلسة جدتي أمام الفرن، تدسُّ في الشاروقة صينية البطاطس وقطع البطاطا وأرغفة الخبز.

كانت تدفع باليد الطويلة للمطرحة، تستعيد الأرغفة بعد نضجها، ثم تلقِّم الحنية أرغفة أخرى. قالت وهي تستعيد المطرحة من داخل الحنية: «ألم يكلمك أبوك في سفري إلى الإسكندرية؟»

كنت أتوقَّع هذه اللحظة، أنتظرها، أستعيد السؤال الذي حفظته: «أبي يسأل، متى تأتين؟»

تشيح بظهر يدها، وتتجه بنظرتها إلى الفرن.

أعيد السؤال: «متى تأتين إلى الإسكندرية؟»

أَلِفت جوابها: «إذا حان أجلي فلن أموت إلا في هذا البيت.»

– لم يعد — هنا — غيرك، كلنا سافرنا.

تعدُّ على أصابعها: «أبوك للعمل ... وأنت وأختك للدراسة.»

وتهز رأسها: «لا سبب يدعوني للسفر.»

تنهض من موضعها، تتحرك خطوات إلى الباب، ثم تميل ناحية سور السطح، تطيل النظر — من وراء السور — إلى مدخنة المحلج الواقفة أمامها، خلف الأسوار العالية، كأنها تعيد التعرُّف إليها، أو تهمُّ بالتحدث إليها: «لا أتصوَّر نفسي بعيدة عن هذا البيت.»

قلت: «أبي زهق من إصرارك على الرفض.»

شردت بنظراتها؛ فيما لم أتبيَّنه: «إذا وعدني أبوك بإعادتي في مولد سيدي أبو حصيرة، فسأذهب معكم.»

– الإسكندرية فيها أولياء كثيرون!

– عليهم رضوان الله، لكنني من محاسيب سيدي أبو حصيرة.

– سيدي أبو الريش قريب من البيت.

أكدت موافقتها بهزة رأس: سره باتع.

واتجهت ناحية الأفق: «جدك رآني مع أبي في مولد أبو حصيرة؛ فخطبني في الأسبوع نفسه.»

حدَّثتني عن مشوارها كلَّ عام بمفردها، أو بمن تختاره من نساء أبو الريش إلى دمتيو القريبة من دمنهور. عرفت الطريق إلى المولد بعد رحيل زوجها، جدِّي، لم يكن يأذن لها بالخروج من البيت في أيامه الأخيرة، ترك السوق والبيع والشراء، ولزم البيت، لم يكن يغادره إلا إلى مسجد أبو الريش القريب، كان يطوي المصحف عند رفع الأذان، يؤدِّيها — بمفرده، أو في الجامع — ويعود إلى قراءة القرآن، تهمس: «ذهب كطيفٍ.»

أَلِفت الحضرة وحلقات الذكر ورواة السيرة والمدَّاحين وأكشاك الختان وخيام الصوفية وذبائح النذور وولائم الطعام والبيارق والأعلام والمناديل الملونة والسيوف الخشبية والسبح الكبيرة والطبول والدفوف وجماعة أبو الغيط والميكروفونات والتراتيل والتكبيرات والتسابيح والعمائم الهائلة وتهليلات المريدين والدراويش والمجاذيب، ونداءات النصفة والمدد، والآهات، والأنفاس، والقلوب المفعمة بالوجد والأشواق. ما طالعها — آخر مرة — في المولد يختلف عما أَلِفته؛ آلاف الناس ذوي السحن الغريبة، يأتون إلى المولد في أوتوبيسات، يرتدون البدل والبنطلونات والسويترات، يتكلمون لغة لا تعرفها، ويصلُّون بما لا تفهمه، ويرقصون، ويسكرون، وشى صوتها بالأسى: «رفض العسكري دخولي إلى منطقة الضريح.»

كوبري أبو الريش الذي تبدأ به منطقة حظر دخول السيارات من معالم حي أبو الريش الذي يقع فيه بيت جدي، هو البيت الذي أمضَت فيه حياتها، تذهب في ديسمبر من كل عام إلى دمتيو، لا تصادفها كلمات منعٍ من أي نوعٍ.

أبو حصيرة، مبنًى قديم في أعلى هضبة ترابية تقارب المترين، إلى جواره عدة مقابر، تستقبل الساحة المواجهة للضريح آلاف اليهود، ويتحوَّل ليل «دمتيو» إلى صخبٍ قوامه الشموع المضاءة والأغاني والصرخات والبكاء والنحيب والرقص وتناول الطعام والشراب.

قلت: «ألا تزورين الضريح الآن؟»

حملت صوتها نبرة وهن: «لم أعد أستطيع المشي كل تلك المسافة، الحنطور ينقلني إلى قرب الضريح.» استعدت مرافقتي لأبي قبل ثلاثة أشهر، هبطنا ميدان المحطة، سِرنا في شارع الصاغة، ثم إلى شارع المحكمة العريض المزدحم بالسيارات والباعة والمارة.

أسرعت خطوات أبي حين طالعنا الميدان المفضي إلى أبو الريش، بدا وابور المياه في نهاية الشارع، والبيوت التي تعاني القِدم والتهالك إلى اليمين، تفرعات الأزقة الترابية تعلو على الشارع الرئيس بطبقات الروث المدكوكة، وإلى اليسار من السور العالي لمحلج القطن، لا تبيِّن منه سوى المدخنة الحجرية المستديرة، أشبه بمئذنة.

رنت إلينا جدتي — في وقفتها على بسطة السلم — بالفرحة والتوجُّس.

قال أبي في هيئة من اتخذ قرارًا: «جئنا لنصحبك إلى الإسكندرية.»

تبدَّل وجه جدتي بحزنٍ لم يسبق أن رأيته في ملامحها، نفرت العروق في رقبتها، ودمعت عيناها، وارتعش أنفها، كأنها تواجه ما لا تملك مغالبته.

ظلَّت جدتي ساكنة في جلستها إلى جانب نافذة القطار، أصرَّ أبي أن يصحبها إلى الإسكندرية، تجاهل الدمع في عينيها، وحزنها البادي، وشرودها فيما لا نراه.

أشارت — بإصبع مرتعشة — إلى ملابس قليلة، وضعها أبي في الحقيبة، كانت تضع حاجياتها في صندوق خشبي، تحيط به سيور نحاسية منقوشة، تأخذ منه ما تريده، تدير المفتاح في القفل، تتأكد من إغلاقه.

أطل بها أبي على زحام شارع الميدان.

قال: «لا اختلاف في الحياة هنا عن الحياة في أبو الريش.»

الشارع — في أسفل — يشغي بالبضائع خارج الدكاكين: طبالي السمك وتعاليق اللحم وأقفاص الخضر والفاكهة وأجولة الأرز والملح ورصات الصابون، وكراسي البلاج، والزحام، والنداءات، والفصال، وعربات اليد، والسيارات، وكومات الزبالة. وزَّعت جدتي نظرات توجُّس بين أبي وأمي، تحدَّث أبي عن قرار هدم بيت أبو الريش، هو قرار مجلس المدينة، ولا بد من تنفيذه؛ حدجته بنظرة تخلو من المعنى، وظلَّت ساكتة.

خامس يوم، قالت جدتي، وهي تضع يدها على صدرها: «أشعر بتقطيع سكين!»

لم تكن جدتي تشكو ألَمًا، ربما همست عن وخزٍ خفيفٍ في جانب صدرها، هي بصحة جيدة ما دامت تتحرك، وتكنس الحجرات، وتربي الكتاكيت، وتزغط الإوز، وتطبخ، وتجلس أمام الفرن، إذا ألمَّ بها صداع؛ فإنها تلفُّ حول رأسها عصابة من القماش، تعقدها مرات متوالية، حتى تضغط على الرأس، وتهب الشفاء، لا تجرع الأدوية، ولا تعرفها.

همَّت بالاستطراد، لكنَّ الكلمات خذلتها، بدت أشبه بالغمغمة، ترنَّحت في وقفتها، كأنها تعاني دوارًا، ثم سقطت على الأرض؛ عادت جدتي إلى بيتها بالقرب من مقام سيدي أبو الريش.

تقاربت زياراتي لها. طالت جلساتنا، حدَّثتها عن خطوات أبي لتنكيس البيت، فلا يسقط، كنت أكتم إشفاقي عليها من الحياة في البيت ذي الطوابق الثلاثة، وكانت تغلق شقة الطابق الثالث ومعظم حجرات الطابق الثاني، وتكتفي بكنس الحجرات الباقية، والسلم، إلى الباب الخارجي. أتابعها وهي تجلس أمام الفرن، وتطبخ، ثم أكشف — بالفضول — أغطية الأواني، لأرى ما بداخلها، تنشر جدتي الغسيل، وتتذكر، وتروي الحكايات، في جعبتها الكثير من الوقائع والأحداث والأسرار، تعاود النظر ناحية المحلج، اتساع مساحة الشارع، تصعِّب رؤية ما خلف السور الحجري العالي: مداخن، وبنايات متباعدة، لا تشي بكل ما في الداخل.

قامت جدتي، وهي تنفض ذرات الدقيق والرَّدة من ثوبها: «هل تريد زيارة خالتك نبوية؟»

هززت رأسي بإيماءة موافقة.

خالتي نبوية هي أخت جدتي، أعرف أنه كان ينبغي أن أصفها بالجدة، مثل جدتي تمامًا، لكن ما لقنته منذ طفولتي هو: الخالة، هي خالتي على الرغم من أنها تكبر جدتي بضع سنوات.

ما كادت تخطو من عتبة باب البيت، ترتدي «الملس» بتكسراته وضخامته؛ حتى اتجه الأولاد ناحيتها، يمدُّون أيديهم بالسلام، يلمسون ثوبها، ربما لتأكيد المعرفة، يسألونها لمجرد أن تبادلهم الكلام، يحبونها ... هذه هي صورة التفافهم حولها، تعلو البسمة شفتيها، وهي تمسِّد على رءوسهم، أو، وهي تدفعهم من حولها برفقٍ.

سرتُ وراءها، أتأمل خطواتها البطيئة، وهي تتجه، بعينيها ويديها، إلى كل ما حولها، مالت إلى اليسار في حارة شمَّة، تسلِّم، وتسأل، وتجيب، وتشير إلى النوافذ المفتوحة والمغلقة، وتحاذر خطواتها في الأرض المغطاة بالتراب وروث البهائم، البيوت الواطئة من الطوب الأحمر، على الجانبين، الشرفات والنوافذ التي امتدت أمامها حبال الغسيل، النسوة على العتبات، يبادرن جدتي بالتحية، ويتكلَّمن، وينقين الأرز، ويقشرن البصل، روائح البخور والتوابل وزفارة السمك وأنواع الطعام.

هتفت: «يا طاهر» — اسم أكبر أبناء خالتي نبوية — وهي تدفع الباب، طالعنا امتزاج الظلمة الشاحبة ورائحة القِدم والعطن. الأرضية مكسوة بالتراب والروث والمتساقط من بقايا الطعام واللبن، أتبيَّن كومات الحطب إلى جانب الدرجات الحجرية الصاعدة إلى أعلى البيت. تكوَّمت — في الناحية المقابلة — جرار وقدور وبلاليص وأقفاص وأجولة مربوطة وقُفَف وأوعية مكسورة، الزنابيل معلَّقة في الأوتاد، وثمة رائحة صنانة تترامى من مرحاضٍ قريبٍ.

استيقظت جدتي — كعادتها — عند صلاة الفجر، انشغلت بتنظيف البيت وإعداد الطعام، وتفقد عشة الدجاج وبنيات الحمام، قلت — وأنا أرنو إليها — متأملًا: «من أين خضرة عينيك؟»

وهي تخفض نظرها: «كانت عينا أبي خضراوين.»

رنت — بعفوية — إلى صورة جدِّي على الجدار، يرتدي قفطانًا مزهرًا، وجُبَّة مقلمة، وحزامًا أخضر، وطربوشًا، وحذاءً أجليسيه برقبة، وفي يده منشَّة، إلى جوار الصورة، وفي الجدار المقابل، لوحات كُتِب عليها آيات من القرآن، وصورة للكعبة، وصورة للمسجد الأقصى، وثمة أصوات أولاد — يلعبون بالكرة — تترامى إلى النافذة الصغيرة المفتوحة.

ظللتُ مسترخيًا على سريرها في حجرة الطابق الأرضي، أهملَت طلبي أن أنام في حجرة أخرى: «إنه صغير، قد لا يسعنا.»

وعلا صوتها بالغضب: «ترفض النوم في حضن جدتك؟»

ثم في لهجة محرِّضة: «كان أبوك يقيم في هذه الحجرة قبل أن يترك البيت.»

لم أستعد ما قالته عند قدومي، ولم أفكر؛ إن كان ما قالته هو ما تريده بالفعل، تابعتها، وهي تكنس، وتمسح، وتبدِّل مواضع الأشياء، تتمتم بأدعية لا أتبيَّن مفرداتها، تلاغيني بأسئلتها ودعاباتها دون أن تجالسني، يعلو صوتها ويخفت بقدر ابتعادها عن حجرة الطابق الأرضي، واقترابها من الحجرة أو من باب البيت.

أَلِفتُ الحياة في طفولة جدتي، أتصوَّر الأمكنة والملامح والقسمات والتصرفات، دنيا المناقب والبركات والمكاشفات والخوارق والمعجزات، حكايات السحر والجان والمردة والغيلان، العوالم المملوءة بالأطياف والقرناء والأشباح والمخلوقات الغريبة.

تحدثت — بصعوبة — عن جدي، وأخوالي، الذين فارقوا البيت بانتقالهم مع زوجاتهم، أو بالموت. ظلَّت في البيت — ذي الطوابق الثلاثة — بمفردها، اكتفت بحجرة الطابق الأرضي، المطلة نحو الطريق على السطح؛ لإعداد الطعام، وتربية الطير، ونشر الغسيل، تفتح الحجرات الأخرى، وتعدها، إن قدمت أسر الأبناء من خارج دمنهور. روت عن تسلُّل لصٍّ إلى داخل البيت، عرف أنها تسكن البيت بمفردها، قفز من نافذة الدور الأرضي المفتوحة، تبيَّنته في وقتها على البسطة العلوية، أرادت أن تصرخ، فاختنق الصوت في حلقها، انحنت على الأرض، قبضت حفنة من التراب، وقذفت بها وجهه، صرخ الرجل لغياب بصره، وعانى التخبُّط، وهو يدفع باب البيت إلى الشارع.

أدركت جدتي أنَّ أولياء الله أنقذوها مما كاد يهدد حياتها.

تنبَّهت لنصيحتها: «ضع ظهر يدك على فمك، وأنت تتثاءب؛ حتى لا يقفز الشيطان إلى فمك.»، أعادت جدتي قولها: «قد لا أزور ضريح سيدي أبو حصيرة.» ظللتُ صامتًا.

فردَت خرقة تمسح بها التراب:

– «يشاركنا الاحتفال بمولده ناسٌ لا أعرفهم، تنقلهم إلى الضريح سيارات كبيرة، ويفعلون مساخر.» ثم، وهي تلمُّ الخرقة في يدها: «لن أتردَّد على الضريح، ولا أشارك في المولد؛ حتى تقتصر المشاركة على ناسه.»

مضت إلى الناحية الأخرى من السطح، ترنو إلى أعلى البنايات، وتباعد السحب في انفراجات تنفذ منها أشعة الشمس، والأفق البعيد. تضع كفَّها على حاجبيها، كأنها تتجه بنظراتها إلى موضعٍ تراه، ولا أراه.

تمتمت بآياتٍ قرآنية، وأدعية، وكلمات غير مترابطة.
كوَّرت الخرقة في قبضتها، ومالت إلى الباب.
تبعتُها، وهي تهبط درجات السُّلم، وصوتها المتعب يحذِّرني من السلَّمات المكسورة.

ارتحال السكون

طرف الخيط يصعب التقاطه، وصْل النتائج بأسبابها ربما ساعد على توضيح ما غمض، أتابعكِ وأنتِ تميلين من ناحية شارع سيدي داود إلى شارع الحجاري، لا أحاول اجتذابك إلى حديثٍ بسؤالٍ، أو ملاحظة، أكتفي بهزة الرأس، أظهِر التأثُّر لرؤيتكِ؛ وأنتِ تفتحين الباب الزجاجي، وتعيدين ترتيب البضائع على الأرفف وفي الفاترينا، وتكنسين داخل الدكان وخارجه، ثم تظهر حلوى من كل الأنواع، علب الشوكولاتة والبسكويت، وأقراص المشبك والكعك والمعمولة، ومكعبات الزبدة والكيك والجاتوه، والمرطبات والمياه الغازية، والدولاب الزجاجي على أرففه قطع التورتة بتكوينات مختلفة، وصينية الهريسة تعلو النيران الهادئة.

لم يعد في حياتي قبل ولا بعد، خلت مساحة الصورة إلا منكِ، لم أعد أرى في الدنيا فتاة أخرى، أضع اهتمامي — بالساعات — في وقفتي وراء النافذة، أتابع كل ما تفعلين، ألحظ حتى التصرفات العفوية، أخمِّن الكلمات التي ترافقها ابتسامة وجهك، في بيع الحلوى للزبائن، أرهف سمعي كأني أريد التقاط الهمسات المتبادَلة بينكِ وبين مدحت شاهين، أهمل حتى مواربة ضلفَتي النافذة حينما تقتحم الشمس الشقة، بعد أن تتجه إلى الناحية المقابلة، ذلك ما كنت أحرص عليه، أو أغلق النافذة تمامًا، منذ الظهر إلى ما بعد المغرب.

أذكر متى ظهر مدحت شاهين في حياتك، في حياتنا، هزَّ المفتاح في يده؛ وهو يتجه ناحية دكان أدوات الصيد الملاصق لدكان الحلواني الذي تعملين فيه، القامة طويلة، والبشرة نحاسية، والعينان تشيان بنظرة مقتحِمة. تابعت انشغاله بترتيب كومات الغزل والحبال وقطع الفلين والإسفنج وبراميل القطران والبوص والسنارات والسكاكين والخطافات وطعم السمك.

لاحظت من وقفتي في النافذة المطلة على ناصية شارع الحجاري أنه قدَّم نفسه في اللحظة الأولى، كأنه قدِم للتعرف إليك، تحوَّلت هزة الرأس المحيية في الأيام التالية إلى

مناقشات، وأخذ وردٍّ وملاحظات، اعتدت وقوفه بعيدًا عن دكان أدوات الصيد، ووقوفه أمام دكانك، بدا مثل شيطان برز في حياتنا ليفسدها، يشغلك حتى عن نفسك، ويقتلني بالتوتر.

حين يقرر المرء أن يحب فهو يبحث عمن يبادله العاطفة، تصوَّرت ظهوره في حياتك، بداية علاقة جميلة تأنسين إليها، ألمح التماع عينيك البُنيتين، وارتعاشة أنفك الدقيق، والحمرة التي تغطي وجنتَيك. تابعت لهفتك وأنت تنظرين إلى دكان الصيد المغلق، التوتر ينطق في ملامحك وتصرفاتك، لَمَّا عاد في اليوم السابع وعلى شفتيه ابتسامة فقدت المعنى، حدست أن غيابه ليعرف ما في نفسك، ليزيد من شوقكِ إلى لقائه وإيلامك.

كنت أضيق — أحيانًا — بسكوتك عن تصرفاته، وقبولك ما لا ينبغي أن تقبليه، أتململ في وقفتي وراء النافذة لرؤية تطور العلاقة بغير ما كنت أتوقعه، يناوشني الفضول والرغبة في المتابعة، يداخلني شعور بالضيق، وربما الغضب؛ لصمتك أمام ما يقوله، أو يفعله، تؤلمني نظرة الرضا في عينيك، تتصاعد في أعماقي موجات غضب من تصرفاته في مواجهة عجزك الواضح، تثيرني قدرته السيطرة على حياتك؛ الثياب، ومفردات الكلام، وطريقة المشي، والجلوس، حتى ما تضيفينه إلى جسدك أو تختزلينه من كيلوجرامات، كأنه أخطبوط يقيد تصرفاتك، يمنعك من الحركة، يعتصر حياتك، تواجهين الموت لو أنك حاولت المقاومة.

فقدت صبري تجاهك، أعاني ما يفعله، أرتجف للتصرف الذي يمليه عليك، كأني أنا المقصود بنصائحه وملاحظاته وأوامره، حتى الثياب التي أحدس أنه دفعك إلى ارتدائها، تمنيت لو أنك رفضت نصيحته.

بدا الأمر شخصيًّا، أحسست أنه يخصُّني، وأنك تخذلينني بصمتك عن تصرفاته، في ذات لحظة شعرت بميلٍ إلى الغثيان، أرفض مجرد الإشفاق على ما بدت عليه العلاقة بينك وبينه، أفسد — بتصرفاته — صورتك الجميلة، غابت النظرة الطفولية الصافية، حلَّ بدلًا منها توتر، ينعكس في ارتجاف أنفك وعينيك، والارتباك الذي يسِم تصرفاتك، تخفضين رأسك أمام عباراته القاسية — لا بد أن تكون قاسية — وتكوِّر قبضة يده بما يعني التهديد، أحدس مشاعرك وما تعانين، من تعبيرات يديك، وملامح وجهك، والدموع التي تمسحينها بكم البلوزة البيضاء. لم تعُد متابعتي فضولًا، ولا حب استطلاع، شغلني ما يحدث، أضيق بتصرفاته، وأحزن لصمتك عما يفعل، تشغلني توقُّعات أخشاها، ولا تفطنين إليها، وإن اكتفيت بالوقوف وراء النافذة، وتأمُّل ما يجري في الناحية المقابلة.

همس في أذنك بما لم أتبيَّنه، انعكست كلماته ضيقًا في ملامحك، وأشحتِ بيدكِ، عاد إلى أذنك بفمه، حدست أنه يهون عليك، ويعتذر عمَّا فعل، قال ما استدعيتِ له ابتسامة، أدركت أنها لإنهاء الموقف، أو للمجاملة، عرفت أنه لم تعُد بينكما مساحة ودٍّ، تداخلت في نفسي مشاعر غامضة، لم أدرِ إن كنت قد حزنت أم سررت لها.

أزمعت أن أفعل شيئًا، وإن لم أدرك — على وجه التحديد — ما يمكن أن أفعله، أقاوم التردُّد، وأطرده، أعبر المسافة بين البيت والدكان، أواجهه بما أكتمه في نفسي، وأتقبَّل النتائج، لكنني أعاني من فقدان الرغبة في أثناء مواجهته، أو أني كنت أخشى المواجهة، ما أراه من تصرفاته، يتسلل إلى داخلي بأسئلة قاسية، ولعلَّه الخوف.

كنت دائم التخيُّل لمواجهتي له، أحاصره في زاوية الدكان، أحذِّره من تصرفاته القاسية مع أميرتي الجميلة، أصوِّب إليه من اللكمات ما يجبره على التدخل.

ناقشت الأمر بيني وبين نفسي: ماذا لو أني وقفت أمامك، وهمست شفتاي بالتحذير، فواجهت الصدود! هل أظل في وقفتي؟ أو أتمنى الموت؟ هل فطنتِ إلى ارتباكي وأنت تطالعينني بملامح الأميرة في وقفتك أمام باب الشقة؟ تداخلت في نفسي مشاعر كثيرة، غامضة، ما أذكره أنني أخفقت في استدعاء الكلمات؛ التي أردُّ بها على قولك الهامس: أستأذنك في التليفون.

اتسم ردُّ الفعل في تصرفي بعفوية لم أتدبَّرها، غمغمت بعبارة ترحيب لا أذكرها، أفسحت لك الطريق، تأمَّلت الشقة بتوقع نظراتك لها، الصالة الواسعة، تتوسطها طاولة خشبية صغيرة، مغطاة بمفرشٍ من القطيفة الحمراء، حولها أربعة كراسٍ، تحتها فروة خروف، فُرِشت كسجادة، اللوحات على الجدران للكعبة، وصور فوتوغرافية، ولوحات تآكلت حوافها، أو شحبت ألوانها بمرور الوقت، الأبليكان المتقابلان على الحائط المكتب الخشبي الصغير، فوقه أوراق تصدير واستيراد وكتب في المعاملات التجارية، النجفة الخالية إلا من لمبة واحدة، الكنبة الاستانبولي، المروحة المتدلية من السقف تصدر طنينًا خافتًا.

غالبتُ التردد لكي أنبِّهك إلى خطورة ما يفعله مدحت شاهين: مدحت شاهين، قريبك؟

التمعت عيناك البُنيتان بتساؤلٍ: «لا، هو المسئول عن دكان الصيد.»

ثم، في نبرة التساؤل: لماذا؟

– لا أرتاح له.

وأنت تربتين صدرك: أراه إنسانًا لطيفًا.

– هذا رأيك ... لي رأي آخر.

واتجهتُ بنظري إلى الناحية المقابلة.

أدركت أنك تهملين تصرفاته القاسية لأنك تخشين غيابه، فقْده، لا يشغلك سوى أن يظل في حياتك، يأتي إلى دكانه كل صباح، يقضي فيه النهار، يحدِّثك في وقفته على الحد الفاصل، أو أمام دكان الحلوى، أجد انعكاسات كلماته على ملامحك بما يسهل فهمه.

ألزمت نفسي أن أظل هادئًا، وأترك الأحداث تمضي كما هي، هذه إرادتك، لا أتدخل على أي نحوٍ.

لم أعد أتردد على الدائرة الجمركية إلا لأوقِّع في الساعة، ها أنا ذا أحرص على المجيء إلى عملي، ثم أعود، ألزم موضعي وراء النافذة، أرقب ما يحدث في الدكانَين المتلاصقَين، يبدأ يومي حينما تُقبلين من ناحية الموازيني أو رأس التين، تضعين المفتاح في الباب الزجاجي، تتأكدين من ترتيب الحلوى، أو تعيدين ترتيبها، أهملت ملابسي والقراءة ومشاهدة التليفزيون ونوم القيلولة، حتى الطعام أتناوله في وقفتي وراء النافذة، لا تتحوَّل عيناي عن الموضع الذي اجتذب اهتمامي، إذا أغلقتما الدكانَين … أنسحب إلى الداخل، أرتمي — بالتعب — على السرير، أغيب في النوم، أصحو على رنين جرس الباب، أضع الجريدة على الطاولة الصغيرة، لا أحاول حتى مطالعة عناوينها، أمضي إلى الدائرة الجمركية، وأعود، ألزم وقفتي وراء النافذة.

أثارت الحقيبة الجلدية في يدك دهشتي، أشرت إليه وأنتِ تتكلمين، خمَّنت أن ما بالحقيبة يخصُّكما، لم تحاولي فتحها، فأحاول تبين ما فيها، حين أغلقتما الدكانَين، ورفع الحقيبة على كتفه، وسرتما معًا، انداحت في داخلي مشاعر الضيق، أظن أنه لم يكن مجرد ضيق، حدست أنه يرافقك إلى مكان لا أعرفه، وإن كنت لا أحب أن تذهبي إليه، تابعتكما — في رمادية الغروب — تمضيان إلى نهاية الحجاري.

كانت الظلال قد تقلَّصت، وانسحبت بقايا الشمس خلف البيوت وأعلى الجدران، لم تعد إلا ذؤابات أميَل إلى الحمرة. تكرَّر ما حدث في الأيام التالية، يدفعني التوتر إلى خارج البيت، تتابعكما عيناي حتى تغيبا في انحناءة الطريق إلى شارع رأس التين. أترك النافذة مفتوحة، أهبط درجات السُّلم، أتجه ناحية البحر، تلازمني أفكار مختلطة ومتشابكة، لا حصر لها، تتأمَّل نظراتي ما لا أراه، أو أتبيَّنه، التفصيلات الصغيرة تلحُّ على ذاكرتي؛ الكلمات الهامسة والزاعقة، تكوُّر قبضة اليد، توبيخه المتكرر لك من دون مقدماتٍ، وبلا سببٍ.

أدركت أن مراقبة ما يجري من وراء النافذة خطأ، ينبغي التنبُّه إليه، أزمعت أن أبادره بتصرفات العداء، وأدفعه إلى ترك دكان الصيد، والحي كله، تحاصره المضايقات، فيذهب

بلا عودة، هو غريب عن بحري، وإن لم أعرف إن كان من الإسكندرية أم من خارجها، لا أذكر أني التقيت به في جامعٍ ولا شارعٍ ولا مقهًى، بدت سحنته غريبة حين رأيته — أمام الدكان — للمرة الأولى. في غَبشة الصباح الباكر، عبرت مسافة الطريق بين البيت ودكان الصيد، دلقت الماء الوسخ على بلاط الرصيف، أمام الدكان، صبغت بابه بالشحم وبويا الزيت وما شوَّهه، كتبت على الجدار عبارات التهديد والشتم، دسست في أسفل زيق الباب عملًا؛ يذهل الشاب عن نفسه، تغيبين عن عينيه وذاكرته وعن حياته.

ظلَّت علاقتكما — في الأيام التالية — على حالها، لم تتأثَّر بما صنعته، قاومت الاستياء حين رأيته يكتفي بتأمُّلكِ، وأنت تكنسين الماء الوسخ، وتزيلين الصبغة من الباب، وتقذفين العمل في فتحة البالوعة، لصق الرصيف.

كان الشارع — وقت الظهر — خاليًا، ودكان الحلوى بلا زبائن، ودكان الصيد مغلقًا بلا سببٍ أعرفه. لم أطل مناقشة ما اعتزمت، اندفعت إلى الناحية المقابلة:

– هل استغنى صاحب الدكان عن مدحت شاهين؟

علا حاجباك الدهشة، وأنت تنفضين يديك من بقايا الفانيليا: ما شأنك؟

– الدكان لم يُغلَق منذ فترة طويلة.

أشرت إلى صدرك بأصابع مضمومة: «لا شأن لي.» ورمقتني بنظرة غاضبة: «ولا شأن لك.»

حاولت أن أتكلم، لكن نظرتك الزاجرة، أعادتني إلى حيث كنت.

«أذهلني ما رأيت.»

كان يدفعك بقبضته في كتفك، وهو يتكلم، وأنت تتراجعين إلى الوراء، وتتألمين، أومأت بعينكِ إلى الطريق، تنبِّهينه إلى الأعين؛ التي — ربما — تلحظ ما يفعل، رفعتِ يديك تحمين وجهك من ضرباته المتوقعة، قاومتِه، حاولتِ أن تتملَّصي من يديه، تفلتي بجسدكِ، لكنه جذب شعرك، لفَّه حول يده، خبط رأسك في الحائط، خلت ملامحه من التوقُّع؛ ما إذا كانت الضربات ستجرحك، أو — ربما — تقتلك، تلقي بك على الأرض، لا يأبه بصراخك، ولا انحسار الفستان عن ساقيك إلى أعلى الفخذين، توقَّعت، تمنَّيت، أن تردِّي ضرباته، لا تهملين جسدك بين يديه، يضربه بآخر قوته، من دون أن يعبأ بتألُّك وصراخك.

انبثقت من كتفيه أذرع كثيرة، امتدت الأصابع الخمس في كل يد، أحاطت بجسدك كله، لم تترك جزءًا من دون أن تصل إليه الضربات، تحوَّلتِ إلى دمية يمارس فيها العنف.

تبدَّلت المرئيات، تحوَّلت إلى أشكالٍ لم أفهمها، وفقدت الملامح معانيها.

لم يكن أمامي وقتٌ؛ حتى لمجرد التفكير فيما يحدث، تصاعد من أعماقي ما غطَّى على قدرتي في التفكير، علا في صدري ما يشبه قرع الطبول.

ينبغي على المرء — في لحظة ما — أن يتخذ قرارًا، يتصل بحياته، وحياة من يهمُّونه، زايلتني القدرة على الوقوف في موضعي وراء النافذة، والاكتفاء بالمتابعة، أزمعت أن أتصرف حتى يعرف مدحت شاهين أن لك أصدقاء، يقفون إلى جانبك، ويدافعون عنك. هبطت الدرجات القليلة المفضية إلى الطريق، عبرتُ الزحام والسيارات والنداءات والصيحات والعبارات المتسائلة، واجهته بملامح غاضبة.

لم يشغلني رد الفعل، ولا ما إذا كان يستطيع ردَّ ضرباتي، لكنني ضربته بكل الترقُّب والمعاناة والغل والغضب والتحدي، لم أتدبَّر أين اتجهتْ ضرباتي، أضرب، وأضرب، وأضرب، ضربته بآخر قوتي.

حين تنبَّه إلى ما فعلت، انتفض مثل عملاق، وواجه ضرباتي بما لم أكن أتوقعه، ولا قدرة لي على مغالبته. أهملت التخاذل والتهاوي، لم يشغلني حتى الدم الذي انبثق من جبهتي، ولا الآلام التي صرخت في جسدي كلِّه، دفس ركبتيه في صدري، توالت صفعاته وركلاته، من دون أن أقوى على مجرد الرد.

تماوجت ملامحه، واهتزَّ الواقفون والمارة والجدران، وأسفلت الطريق والسيارات والنوافذ والشرفات وأعمدة النور، شعرت بما يشبه الدوار، والميل إلى الإغماء، وأن روحي آخذة في التلاشي، لكنني تماسكت في وقفتي، وتساندت على إفريز الجدار، حاولت أن أستجمع قوتي، أرد على ضرباته الموجعة بما وسعني، مجرد أن ألامس رأسه أو وجهه أو ساقيه.

كنت أدافع عنكِ، كنت أدافع عن نفسي.

اغتيال

إلى المناضلة الفلسطينية مروة جبر

لكزه الواقف إلى جانبه، وهو يشير بامتداد ذراعه إلى المدينة في أسفل: «أطلِق الرصاص على أي شيء يتحرك، ولا تشغلك النتائج.»

وحدجه بنظرة محرِّضة: «هذه فرصة ممتازة للتدرب على الجسد الحي.»

سأل في دهشة: «أأقتل؟»

– مَن تتردد في قتله سيقتلك.

ثم، وهو يهز قبضته: «لا مجال للتردد في مواجهة الموت!»

أسند البندقية على الساتر الرملي، وتأمَّل المدينة الواقعة في أسفل الشارع الواسع المسفلت، تتفرع منه شوارع جانبية، البيت إلى اليمين، يفصله عن الساتر ساحة دائرية صغيرة، على ناصيتها بيتٌ من طابقين، الواجهة من الطوب الأبيض، والسقف من القرميد الأحمر، تسلَّقت لبلابة حافة النوافذ الخشبية، العالية، وكست الجدران، وتسلَّقت نحو السطح.

تحت البيت دكان بقال، يقف أمامه شاب في حوالي الخامسة والعشرين، يرتدي قميصًا طوى كمَّيه، وبنطلونًا من الجينز. في طرف الرصيف شجرة تين تساقط معظم أوراقها، لم يعد إلا الفروع الجرداء، المتشابكة، يترامى — من بعيدٍ — صوت سرينة إسعاف.

معظم النوافذ وأبواب البيوت والدكاكين على جانبي الشارع المواجه مغلقة، أو تطايرت، البنايات مشيدة من الحجارة والطوب الرملي المتداخل بتكويناتٍ من الخشب.

ثلاثة دكاكين فقط ظلَّت مفتوحة: البقال، ومخبز، وصيدلية، ومقهًى تجاورت في داخله كراسٍ ذات قيعان مجدولة من الخوص، حول طاولات قديمة مختلفة الأحجام،

روَّاده ثلاثة، ثبتت عيونهم — من وراء النافذة الزجاجية المفتوحة — على بقايا البيت المتهدم، وولدان أمسكا بخيط طائرة ورقية، يتابعان ارتفاعها فوق البنايات، وإلى جوار الرصيف كومة زبالة، يعبث فيها قطٌّ، والسماء ملبدة بالسحب.

ظِل المعركة التي دارت — قبل ساعات — بين الجنود والفلسطينيين المسلَّحين، امتص حركة الطريق، المارة قليلون، خلت الشوارع، تناثرت آثار المواجهة: دماء متخثرة على الجدران والأرصفة وفوق أسفلت الطريق، طلقات رصاص فارغة، مِزَق ورقية متطايرة، زجاجات، علب صفيح وكرتون، غيمات التراب — بفعل القصف — غطت واجهات البيوت، كومات الحجارة تناثرت أمامها، تشي بأنها سقطت من فترة قريبة.

لم يشاهد المعركة، وإن تابع تعليقات زملائه، رفض الفلسطيني أن يسلم نفسه، رآه الجنود وهو يقتحم الباب، ويتركه — باللهفة — مفتوحًا، وقف الجنود والبولدوزر أمام البيت ذي الطوابق الثلاثة، علا صوت الميكروفون يدعو السكان إلى إخلائه، انطلق الرصاص من النافذة العلوية، دارت المعركة في دقائق، ثم تهاوت الطوابق الثلاثة، لم تذكر التعليقات إن كان من في المنزل قد فازوا بحياتهم، أم ماتوا بين الأنقاض.

طالت مناقشات الضباط، الأخذ والرد، الأسئلة والأجوبة: «هل من الأجدى فرض حظر التجول؟» حسم القائد الأمر بالقناصة، وتسيير الدوريات، وقفته — وراء الساتر — لإطلاق الرصاص على من يلمح، ولو مجرد سيره أمام البناية، إطلاق الرصاص بلا ترددٍ، اصطياد من تلتقطه الشبهات سهل، إن أغلقت المدينة أبوابها على الفارِّين، وظلَّت الأبواب مفتوحة، وأطلَّ الناس من النوافذ والشرفات، وجلسوا على المقاهي، وأمام الدكاكين، وداخل البيوت.

أمر نقلِه من صحراء النقب إلى مدن الضفة الغربية، فرض توقعًا طيبًا، تصوَّر في الحياة بين الناس ما يطرد الملل، يطل — في وقفته — على صحراء ممتدة، اختلطت فيها الرمال ومساحات الخضرة والبنايات الصغيرة المتباعدة والمعسكرات، أربكته نظرات السكان العرب، التقط منها ما لم يستطع تحديده، وإن غاب عنها الود والألفة، لم يكن يستطيع أن يرد النظرات المتطلعة ناحيته، تحدق فيه، تحاصره، حرص على ما ألزمته به الأوامر؛ كن قريبًا من القوة لتحتمي بها، يشكِّل — داخل المدن — مجموعة مع جنديين أو ثلاثة، يحتفظون بكامل الأسلحة، يقيسون المسافة مع نقاط التفتيش والحواجز والعربات المصفحة والدبابات.

تركت له الأوامر تحديد الهدف، يضغط زناد البندقية على ما يثير الريبة، يقتل قبل أن يستوضح، أو يسأل، أو يتأكد، الأوامر الصريحة تساعده؛ لا تحدق في ملامح من تصوِّب

إليه، الشك يكفي للضغط على الزناد، هذا هو الهدف، فأطلِق رصاصاتك عليه، لا تتردد ... إذا ترددت في قتل عدوك، فسيبادر هو بقتلك، إما أن تتركه حيًّا، أو تفقد حياتك، ظلَّ إسقاط المسئولية في القتل الخطأ بلا معنًى، قانون الحرب لا يعرف المشاعر الطيبة.

ترامى هدير سيارة، بدت مقدمتها في انحناءة الشارع الجانبي، توقفت في موضع محطة الباصات، خلفت عجوزًا يرتدي العباءة والعقال والكوفية الفلسطينية، أسند راحته على قبضة العصا، جال بعينيه فيما حوله، كأنه يتوقع أحدًا في انتظاره، تأكد من إمساكه بالعصا جيدًا، وعبَر الطريق إلى الشارع المقابل.

أحسَّ برغبة في أن يسدد بندقيته إلى موضعٍ ما، أحدٍ ما، يضغط على الزناد، لا يرفع إصبعه، أصدر صوتًا من بين شفتيه؛ تك، تك، تك، تظاهر بالضغط على الزناد، ثم أرخى ساعده.

هزَّ رأسه يطرد النوم، فرك عينيه، أغمضهما، وفتحهما، ثم أعاد النظر إلى الواقف بجانبه، والى الطريق والبنايات أمامه.

تحسَّس البندقية وهو يرمق مسلَّحًا يعبر المسافة بين تقاطعات شارعين، قبل أن يلتقط البندقية من فوق الساتر، كان المسلح قد اختفى.

قرَّب جهاز اللاسلكي من أذنه، يستمع إلى اختلاط المكالمات والملاحظات والأوامر، ربما يكون بينها ما يأمره بفعل شيء، يحدد له الهدف الذي ينبغي أن يصوِّب إليه رصاص بندقيته.

أغلق الجهاز.

ركَّز نظرته على الجسد الأنثوي، يبين عن قسماته في العباءة السوداء، قدِمت من شارع جانبي ناحية دكان البقال، خمَّن من تلويحة يد الشاب أنه ينتظرها.

اطمأن — بنظرة جانبية — إلى زميله خلف الساتر الرملي، قرفص في إغفاءة بين جوَّالين، أسند البندقية على الساتر أمامه، ثبَّت النظارة المكبِّرة على مدخل الدكان، وقف أمامه الشاب والفتاة، الحاجز الخشبي فوقه رخامة، تحتل معظم مساحة الواجهة، عدا مساحة صغيرة سُدَّت بباب ذي مفصلات، ينفذ منها إلى الداخل.

مدَّ يده لها بالمصافحة، استبقى يدها في يده، وضغط عليها بكفِّه، لما ربتت صدره بيدها، حدس أنهما يعرفان بعضهما، ما يراه ليس أول لقاءاتهما.

تابع إشارة الشاب ناحية البناية المتهدمة، قال كلامًا كثيرًا، أضاف إليه تعبيرات يديه، مرَّر جانب يده على رقبته دلالة الموت. أزاحت العباءة عن مقدمة الرأس، فبرزت خصلة من

شعرها، أظهرت التأثُّر في إسناد ذقنها على قبضة يدها، وإعادة النظر إلى المكان بعينين متأمِّلتين.

رفع الشاب رأسه وذراعيه إلى السماء، وقال ما لم يتبيَّنه، ثم مسح براحتيه على وجهه. قال الشاب ما فطن إلى معناه في تجاه نظرة الفتاة إلى الناحية المقابلة.

التفت — بتلقائية — إلى مصدر ترامي هدير سيارة، مدَّ عنقه، وزوى عينيه، تبيَّن عربة مصفحة، بداخلها ضابط وثلاثة جنود، مالت إلى الشارع الجانبي أسفل الساتر الرملي، واختفت.

قرن الشاب كلماته بإيماءة إلى الدكان: «هل يدعوها إلى الدخول؟»

كان الدكان من الداخل معتمًا، لم يستطع تبيُّن ما إذا كان خاليًا.

تحركت شفتا الشاب، كمن يهمُّ بالكلام، ثم سكت، لزم صمتًا، واكتفى بالنظر إلى قدميه، نبَّهتْه إلى أنه وضع أزرار القميص العلوي في العروة الثانية، اتجه إلى الناحية المقابلة، تأكد من وجود الأزرار في مواضعها، وعاد إليها بابتسامة معتذرة.

ظل صامتًا، وإن استحثَّته على الكلام بنظرة مشجعة.

شوَّحت بيدها، وابتعدت خطوات، لحِقها، مدَّ ذراعيه، أعادها إلى وقفتها أمام الدكان. أزاحت خصلة الشعر المتهدلة على جبينها، وواجهته بنظرة متسائلة، انتفضت لسقوط ورقة يابسة من فوق الشجرة، طفرتها بطرف إصبعها، تأمَّلت نثارها على الأرض، وداست عليه.

خبط جبهته علامة التذكُّر، اتسعت ابتسامتها — رد فعل لما قاله — فتوضَّحت الغمازتان في وجنتيها، والتمعت أسنانها البيضاء، قرَّبت فمها من أذنه، قالت ما أضحكه، حتى ضرب ركبته.

أخفضت عينيها، فحدس أنه قال ما أربكها، أشاحت بوجهها؛ حتى لا يفطن إلى ما قد تعبِّر عنه عيناها، لو يعرف ماذا يقولان؟ ماذا يقول لها؟ ماذا تقول له؟

التخمين صعب، وإن حرك الشاب يده بما يشي أنه قال ما لديه.

ظلَّت أصابعها على ظهر يده، كأنها استراحت إلى هذا الوضع، داعبت ظهر كفِّه بظفرها، عاد إلى احتواء أصابع يدها بين راحته، يضغط عليها بآخر ما عنده، وهي تضحك، وضعت سبَّابتها على شفتيه، دلالة أن يصمت، تظاهر بأنه سيعض إصبعها، احتضن الإصبع، ورفعها إلى شفتيه، وقبَّلها، تراجعت بأعلى كتفيها، وأعادت خصلة الشعر المتهدلة بهبة هواء مفاجئة.

أحسَّ بتوتُّر يتولد داخل نفسه، لا يدرك بواعثه، وتملَّكه إحساس بالمحاصرة، لم يستطع السيطرة على انفعاله، اختلطت المشاعر في داخله، تداخلت، وتشابكت، غاب حتى إحساسه بالزمان والمكان، حاول أن يتجه بنظراته إلى أعلى، فيعود إلى نفسه.

كانت الشمس قد مالت نحو الغروب، انحسرت عن الأسطح وأعلى البيوت، وتقلَّصت الظلال، تناثرت سحبٌ كثيفة تشي بمطرٍ وشيكٍ، ودارت أوراق الشجرة المتساقطة في دوامة؛ بتأثير الهواء المندفع من تلاقي الشوارع الجانبية.

تأكد من وجود رأس الشاب في دائرة التلسكوب.

ضغط على الزناد.

نافذة على ميدان

المصادفة هي التي فتحت الباب السحري، أطلَّ من النافذة في الطابق الرابع، نصف الدائرة أمامي يحتضن الميدان ذا النافورة الساكنة. على الناصية قهوة، يلاصقها دكان أدوات منزلية، وصالون حلاقة، ومكتبة، الحركة في القهوة إلى بعد الظهر قليلة، الروَّاد في الداخل يستغرقون — متأثرين — في قراءة الصحف. أتابع حركة الحلاق داخل الصالون، ما يظهر من قامته أسفل الستارة المسدلة، يرفعها بيدٍ، ويزيح باليد الأخرى كناسة الصالون إلى أسفل الرصيف، يضع حمَّالة الفوط أمام الجدار الخارجي، ينثر نشارة الخشب في الداخل، وفي المساحة المقابلة من الرصيف. وقفة الحلاق تبدو من الباب المفتوح إلى ما تحت الركبتين، يخلو الصالون، فيجلس الرجل بالقرب من الباب، ينادي على جرسون القهوة، يتأمل حركة الميدان، خطواته البطيئة تشي بتقدُّم عمره، وإن بهتت ملامحه لبُعد المسافة. كان الوقت ضحًى.

الميدان يخلو من المارة وحركة السيارات، عدا كنَّاس جلس مسترخيًا في زاوية الرصيف، إلى جانبه عربة حديدية صغيرة، تنبش في القمامة داخلها، ثلاث قطط.

لم أفُه بكلماتٍ من أي نوعٍ، وارب الباب، فشغلني الفضول لمعرفة ما وراءه …

نظرتُ في المرآة بعد أن جلست على الكرسي المقابل.

كان الصالون أقرب إلى الضيق، الأرضية السيراميك تغطيها نشارة الخشب، أخذ كرسيَّا الحلاقة معظم المساحة إلى اليمين، أمامهما مرآتان تحت كل واحدة رف زجاجي، فوقه أدوات الحلاقة؛ ماكينة الشعر والمقصات ووعاء الصابون والفرشاة وعلب البودرة وزجاجات الكولونيا، إلى اليسار ثلاثة كراسٍ للانتظار، تعلوها نتيجة حائط باسم الهيئة، حدست أن الرجل أخذها من موظف يتردَّد على الصالون. في الركن كومودينو صغير بثلاث أرجلٍ، فوقه دورق مياه معدني، في الركن المقابل، خلف الباب، طاولة مستطيلة، تكوَّمت

عليها مجموعة صحف، السقف مرتفع، تتدلَّى منه نجفة مطفأة اللمبات، وبين السقف وأعلى الباب يد زرقاء التفَّ حول أصابعها عقد رفيع من الخرز الملون.

بدا الرجل متغيرًا عن رؤيتي له من النافذة، شحبت ملامحه في بُعد المسافة بين النافذة والصالون، أميَل إلى القِصر والامتلاء، تطلُّ من عينيه طيبة، على وجهه حفاوة مرحِّبة، اكتفى من شاربه بمربعٍ صغير بين فتحتَي الأنف، البالطو الأبيض ينسدل إلى ما تحت الركبتين، والبنطال يغطي القدم، عدا الأصابع في مقدمة الصندل.

– الأستاذ القصبي أثنى على قرار سيادتك بزيادة مدة الإجازات العارضة.

فطنت إلى أن نظرتي المتسائلة لم تخفِ ما اقتحمني من الدهشة.

أشار بيده إلى فوق: أسيادتك رئيس الهيئة؟

– من هو القصبي؟

– موظف عند سيادتك ... من زبائني.

حدجته بنظرة متفحصة: «هل يكلمك عن الهيئة؟»

وهو يتكلَّف ابتسامة: «لا يقول إلا الخير.» ومسَّد صدره براحته: «خادمك زهيري، معظم موظفي الهيئة زبائني.»

قلت بالفضول: أية إدارة؟

– كل الإدارات.

طقت الفكرة في دماغي، أزمعت تأجيل عرضها حتى لا أثير حذره، وتنشأ الثقة، لو أني تسرعت، ربما احتمى الرجل بالصمت. استغنيت عن الحلاق الذي كان يتردد على البيت، ربما عرفت من زهيري ما لا أعرفه من أحوال الهيئة، قلتُ وأنا أتحسَّس ذقني بأصابعي: «نسيت.»

لاحظت أن حفاوته المرحِّبة لا تخص أحدًا، ولا تستثني، كأنه ألصقها بوجهه، لا تتبدَّل، تكلمت عن ظروف الهيئة، الأسرار يعكسها تعمُّد الهمس، فسَّرتُ انشغال زهيري بالتليفزيون المفتوح، فهو تربة غير مستهلكة.

في تعدُّد زياراتي، عرفت أن زهيري لا يبدِّل وقفته أمام الكرسي القريب من الباب، لا أحد يعاونه، ربما جلس زائر على الكرسي المجاور، ينتظر دوره.

توالت الأسئلة، أسئلتي، تحاول كشف ما يخفيه الرجل، تخلَّى زهيري عن الكناية والإضمار والتلميح، يردف اسم الشخص، بوظيفته وأقواله وتصرفاته، يفرق بين من يعمل للأذى، ومن يتمناه، ومن يكتفي بالفضفضة، تعبيرات الوجه واليدين، طريقة الكلام، عُلو الصوت وهمسه.

أدركت أني لم أكن مخطئًا حين طلبت من الرجل أن ينقل لي ما يعرفه، ما يستمع إليه ويشاهده، يروي ما حدث تمامًا، ووثق في صحته، لا إضافة، ولا حذف، ولا محاولة للتهويل أو التهوين، أَصِل الرواية بروايات سابقة، فأعرف أن الصورة صحيحة.

حذرت من أن تقتصر الملاحظات على تعبيرات مائعة، مثل: علمت، قال موظف، ذاعت شائعة، وغيرها من العبارات التي تعاني عدم التثبُّت، يفرق بين الواقعة الصحيحة والشائعة والنكتة، ما أريده اسم الموظف، سنه بالتقريب، ماذا يرتدي، عمله، القسم الذي يعمل فيه، إذا كان له زملاء يصحبونه إلى الصالون، ملامحه الظاهرة، هل تبدو عليه الجِدة، أم الخفة، أم أنه يكتفي بالبوح؟ مدى اتسام تصرفاته بالعفوية؟ أو أنه يدبِّر لشيء يخفيه؟ أهم ما تضمنه كلامه؟ العبارات كلها؟ الخطأ وارد لو أن العبارات اختلطت، فلا أعرف قائلها، أضع توقعاتي، وما يجب أن أفعله لتوقعاتٍ قد تكون غير صحيحة وخاطئة.

أهملت التعرُّف إلى ظروف زهيري الشخصية، إن كان له زوجة وأبناء، وهل يسكن بالقرب من الصالون، أو في حي بعيد، اقتصر كلامه على موظفي الهيئة، ما يلتقطه من ثنايا الحكايات، لا يفلت واقعة ولا عبارة يرى أنها قد تفيدني، لم تفاجئني كلماته المحذِّرة: «راشد الميهي لا يحمل لك ودًّا.»

تابعتُ موظفي الأمن وهم ينقلون النظرات وإشارات الأيدي بين النافذة التي أطل منها وداخل الدكان، لم يبدُ في وقفة زهيري ما يشي بالرفض لما أخرجوا الأسلاك والأجهزة الدقيقة، عانوا حتى اطمأنوا إلى دسِّها أسفل مقاعد الصالون.

حين يجلس المرء على كرسي الحلاق، يكون أميَل إلى البوح، إلى الفضفضة، يأخذه زهيري في الكلام، يحرِّضه على رفع الكلفة، وفتح الباب الموارب، يحكي ما كان قد احتفظ به لنفسه.

تركتُ للسكرتارية تنبيه من أستدعيهم، أو يطلبون لقائي، فيحرصون على حلاقة ذقونهم، أو تشذيبها، يقترحون — اختصارًا للوقت — دكان الحلاق المقابل، ما لا يتذكره زهيري يسجله الجهاز الصغير تحت الكرسي، أعرف ما يتناقله الموظفون من الشائعات والوشايات والدسائس.

ضايقتني نظرات التساؤل وعدم الفهم من عملاء الهيئة، أبديت ملاحظة عن التليفون، قال: إنه لا يقتني محمولًا، والصالون بلا تليفون أرضي.

التليفون الأرضي أول ما سعيت إلى وضعه، فلا يضطر للصعود إلى الطابق الثالث، تركت للسكرتارية تدبير الأمر، حتى جاء عمال الهيئة، استبدلوا بالدورق فوق طاولة الركن هاتفًا أرضيًّا.

أظهر زهيري الفرحة عند زيارتي، وجد في الهاتف إضافة مهمة إلى قيمة الصالون، ناوشني قلق في تصوُّري لزبائن الصالون، ينصتون إلى المكالمات التي قد تفرضها الضرورة، إذا اتصل بي، أو ردَّ على مكالماتي، فإن التنصُّت سيظل قائمًا؛ حتى لو خفت الصوت إلى درجة الهمس.

– كيف يتصرف إن لم يغادر الزبائن أماكنهم؟

أهديته جهاز المحمول، لم أدقق في نوع الجهاز ولا استخداماته، ما يهمني أن يبلِّغني بما يراه أو يسمعه، حدَّدت له الرنات الثلاث، ثم أتلقَّى مكالمته.

أَلِفت إمساكه بالمحمول في وقفته على باب الصالون، أو جلوسه في المدخل، يلمح نظرتي من وراء النافذة، يهز المحمول؛ كمن يبلِّغني بحسن الأداء.

تكررت مكالماته بتكرار تردُّد الموظفين على الصالون، ربما تكلم لمجرد أنه يذكر معلومة نسيها:

– مكالماتك تحرجني!

وحاولتُ بنبرة صوتي تأكيد معنى الكلمات: «اتصل عند الضرورة.»

حملقت في وجه زهيري، كأني لا أصدق وقفته على باب المكتب: «ماذا قال للسكرتارية؛ حتى أذنوا له بالدخول؟» ربما حدسوا من تردُّدي على الدكان أن الرجل صار قريبًا.

قال لنظرتي الغاضبة: «موضوع يستحق مجيئي.»

ثم، وهو يخرج ورقة من جيبه: «يوزِّعون منشورات ضدك.»

أزمعت الانتظار حتى يبلِّغني زهيري، في الصالون بما رآه، أو سمعه، أَلِفت زياراته، يدفع عم طه الساعي الباب دون أن يقدمه، كما يفعل مع بقية الزوار، أضغط على اللمبة الحمراء، تظل مضاءة حتى يفرغ زهيري من كل ما أتى لروايته، أودَع الموظفين ذاكرته، يحفظ أسماءهم ووظائفهم وأحوالهم داخل الهيئة وفي بيوتهم.

قبل أن أترأس اجتماعًا لمجلس الإدارة، يتفحَّص موظفو الأمن الغرفة جيدًا، يتبيَّنون ما وراء اللوحات، يرفعون غطاء التكييف، يفتحون الأدراج، يدسُّون الأيدي أسفل المقاعد وتحت السجادة الشنواه.

تردَّدت في أن أشجع زهيري على مجالسة رواد القهوة القريبة من موظفي الهيئة، يقطع الخطوات القليلة بين الصالون والقهوة، يعود من الداخل بكوب شاي، يرشفه في جلسته على مدخل الصالون. أعرف تخفي موظفين — ساعات طويلة — داخل القهوة، دردشات القهاوي تربة مناسبة لفض الأسرار، وإطلاق الشائعات، الجلسة المسترخية،

وأدوار الدومينو والطاولة والمعسل والشاي، ينبِّهني إلى الكلمات التي تقال في حقي، والتلميحات التي تنال مني، وإلى ما يُعَد من المؤامرات، أتدخل في الوقت المناسب لأحبطها.

إذا زادت مساحة السر، فإنه لن يكون كذلك.

أرجأت قرار تعيين الشاب محمد عبد السميع مفتاح، حتى قرأت كل ما يتصل بحياته، من قرية كمشيش في المنوفية، أتى إلى الوظيفة بقراءة الإعلان، لا أقارب له في القاهرة، حتى شهادته في الحاسب الآلي حصل عليها من معهد بشبين الكوم، ما يضعه زهيري في أذني، أسجله، أدفع بالورقة إلى مفتاح، يمضي إلى الحجرة الصغيرة المجاورة، يغلقها — من الداخل — جيدًا، يضيف بيانات الورقة إلى ما في الكمبيوتر، يقتصر على الأسماء التي يذكرها زهيري، إهمال سرية البيانات يعني فصله بلا مساءلة.

ما أتلقَّاه من زهيري دافعي لاتخاذ القرار: أوافق على الحافز، أو الخصم، عدم احتساب الإجازة، إيقاف الترقية، الإنذار بالفصل، أكتفي بما يبلغني من زهيري، أهمل مذكرات رءوساء الأقسام، لا ألتفت إليها.

انتفضت من الكرسي لصوت الاقتحام، أغلق زهيري البابَ خلفه، واتجه ناحيتي بنظرة مرتعبة، تقلَّصت ملامحه بما لم أره من قبل، غابت الحفاوة الدائمة التي كان قد ألصقها بوجهه، تطوحت يداه بارتعاشة واضحة، كمن يواجه خطرًا لا يقوى على احتماله.

– إنهم يصعدون إليك.

قفزتُ — بتلقائية — خارج المكتب، أحسست بالنيران تتصاعد في داخلي، وبميلٍ حادٍّ للتبول، انطمست المرئيات. لا أحد؛ حتى زهيري تحوَّل إلى شبحٍ غائب التفاصيل، التوقع أقسى مما أحتمله، تطايرت الأوراق — في اندفاعي — من فوق المكتب بتطويحة يدي، ارتطمت بالكراسي والطاولات الصغيرة، قذفني الخوف خارج النافذة المفتوحة.

مدار القلب

صحوتُ في غرفتي، أمضيتُ الليل أناقش أصدقائي مشكلات تهمُّنا، تلفَّت بالدهشة، فهي ليست الغرفة نفسها، ولم تكن كراسي الأصدقاء في مواضعها.

كتمت أمي إشفاقها: «كنت تحلم.»

لا أعرف إن كان ما شاهدته حلمًا، أم أنه حلم يقظة، أي تلك اللحظات التي تسبق الصحو من النوم؟ أم أنه مجرد تشوُّش يصنعه اختلاط المرئيات في الذاكرة؟

أظل دقائق ممددًا على السرير، أسرح فيما يشبه الخيالات، أحاول تجميع أجزاء الحلم، أفصل بينه وبين وقائع الحياة اليومية، الحياة المعاشة بالفعل، أتذكر المشهد، والذي يليه، تتوالى المَشاهِد، أتبيَّن الفجوات التي نسيتها.

نظرت — بتلقائية — ناحية بقعة الفراولة التي انتترت على الجلباب الأبيض، بدت البقعة الحمراء في موضعها بالصورة التي نمت عليها، لم أتبيَّن إن كان حلمًا أم حادثًا يشبه الحلم! لغرابته تصورته حلمًا.

حين قال لي سيد عبد ربه أنه طلق زوجته، سألت: «ألم تقل هذا من قبل؟»

قال إنه صحبها إلى المأذون في الصباح، وطلَّقها، أملى الانفعال قراره، ولم يكن في باله.

كتمت الدهشة في داخلي، كان قد روى لي عن الطريق المسدود الذي أوصله إلى قرار الطلاق، لا أذكر المكان ولا الزمان، تغلَّفت المرئيات بضبابية غيَّبت الملامح، وإن ترامى هدير أمواج البحر في اصطدامها بصخور الشاطئ.

عيناي المفتوحتان، وحركة جسدي، والكلمات التي أقولها، والمَشاهِد التي أراها، والتلفُّت، والأذان في أبو العباس، وضوء النهار، والزحام، والعراك، والاندساس في حلقة الذكر، وتلاغط الأصوات، ذلك كله يضعني في قلب الحياة، الفعل والأخذ والرد والفصال، يفاجئني الحلم في لحظة لا أتوقعها، يتسلَّل وسط انشغالاتي اليومية، لا أتذكر الليلة التي

جرى فيها، ولا أتذكر الحلم نفسه، لكنه ينبثق كالمفاجأة، أطيل التأمُّل، والتقليب، واستعادة الملامح والتصرفات، يرافقني طيلة ساعات اليوم.

بدت سمكة القرش في سكونها على الطاولة، مختلفة عما عرضه الفيلم الأمريكي، صغيرة بما يصعب التصور أنها تُحدِث الأذى، بدت صغيرة حتى عن مثيلتها في مرة سابقة.

قال الرجل: «هذه أول مرة نضع القرش داخل الحلقة.»

حدست أن صورة القرش اختلفت في ذاكرتي بما رأيته في الفيلم، وما أراه الآن، وما بقي من صورة الحلم الذي — ربما — أتاني في النوم. قال لي عبد الله فودة في قهوة فاروق: «كنت تحلم.»

فركت عينَي لأتأكد إن كنت أحلم بالفعل، عرفت أنه يقصد تهويل ما قلت، وإن ما قلته لا صلة له بالظروف التي نعيشها. انتترت من النوم على نداء باسمي، تلفَّت لأعرف مصدر الصوت، طالعني الصمت السادر، وحطَّ السكون على الأشياء كلِّها من حولي. هو صوت أبي، أميِّزه جيدًا، على الرغم من رحيله منذ سنوات.

ومضت عينا أمي بإشفاقٍ: «قد يزور الموتى أحباءهم، أطلب لأبيك الرحمة.»

تنهدت، وعدتُ إلى موضعي، ظللت صاحيًا لصدِّي النداء الذي ملأ أذني، حتى غلبني النوم.

أغمض عيني بعد الصحو، لا للنوم، وإنما للتذكُّر، لاستعادة أحلام ناقصة، ومتقطعة، وبها فجوات، وأحلام واضحة، متصلة، كأني عشتها في الواقع، تختلط الأحلام والكوابيس والمَشاهِد الحقيقية والمنامات والأخيلة والرؤى والتصورات متشابكة، تتداخل، أعجز عن التمييز بينها، لا أدري أيُّها جرى في اليقظة، وأيُّها جرى في المنام، يصعب أن يتشكَّل مشهد أطمئن إليه؛ «شوارع خافتة الضوء، بنايات، مساجد، ميادين، ساحات، ضوء فنار، حلقات ذكر، زراعات، مقاهٍ، شاطئ، مآذن، سيارات، جبال، رمال، غابات، أسواق، بلانسات صيد، إنشاد، ربما عجزت عن فصل ما بينها.» أستقر على المعنى الذي صحوت عليه، أو أنه يظل في الذهن، يعاودني في أثناء النهار.

أضيِّع وقتًا في إقناع نفسي أن ما رأيته كان حلمًا، مشاهد متصلة صنعتها المخيِّلة، وليست وقائع حقيقية عشتها. في ذات صباح دعكت عينَي، وسألت: «أين محسن الغمري؟»

قالت زوجتي: «من أسبوع ودَّعك؛ ليعود إلى طنطا.»

أظهرت الحيرة: «أمضينا الليل على هذه الشرفة.»

جدران الغرفة المصمتة، إلا من نافذة صغيرة تطل على الكورنيش، نبَّهتني إلى أن جلستي إلى محسن الغمري كانت في الحلم، يختلط فهمي لما جرى، إن كان حلمًا، أم أنه حقيقة عشت تفصيلاتها.

بدا الشارع الضيق ملتفًّا بالظلمة والصمت ... شدَّتني العِصي الغليظة في أيدي الرجال الثلاثة، فلم أتبيَّن ملامحهم، اندفعوا من أول الطريق، أحطت وجهي بذراعي أتقي العصي المرفوعة، الضربة الأولى انبجس فيها الدم والألم والصراخ، زاد صراخي للدماء التي غطَّت الرؤية.

قلت وأنا أهز رأسي: «كابوس فظيع!»

أرجعت الخدش في وجنتي إلى شفرة الحلاقة، فطنت — لرؤية ذقني في المرآة — أني لم أكن حلقتها. كان اهتزاز الباص قد قارب الأجساد الواقفة في الممر، اصطدمت الأيدي والأكتاف والصدور، ربما الخدش أحدثته — في تلك اللحظة — إصبع تتقي الخطر، لكن إقامتي في البيت ثلاثة أيام أخيرة، يقصر الزحام — الذي أذكره — على الحلم، في الحلم اصطدم الظفر — لحظة اهتزاز الباص — بالوجنة، لغياب الألم، فلم أتحسَّس الموضع عند الصحو، لكن الحادثة، الحلم أتذكرها، يصعب أن تكون قد جرت في الحياة المعيشة.

حين سأل عبد الله فودة عن سبب وجود كدمة زرقاء في جبهتي، فتشت عن إجابة لا تستدعي سؤالًا تاليًا، ابتسمت أعيننا وهو يودعني آخر الليل، لا بد أنه رأى جبهتي الخالية من الكدمات، الغلالات أحاطت بالميدان؛ الذي شحبت قسماته، أقف وسط المصلين، أؤدي الركعات والسجدات وراء الإمام الذي لا أراه، الكدمة ليست أثر حادث، لكنها تأثير الصلاة، «هل تداخل الحلم بما حدث فعلًا.»

أعجز عن تذكُّر الأحلام، أو أتذكر وقائع، وتنطمس وقائع أخرى، ألتقط ما جرى بالفعل، أنتزعه من زحام الرؤى والأحلام والكوابيس والمنامات والأخيلة؛ التي تبدِّدها اليقظة، صلَّيت في غير موعد، قرأت القرآن، تأمَّلت عِظات أمام أبو العباس، اجتذبتني كلمات المنشد في الساحة الملاصقة لحلقة السمك، تطوَّحتُ مع الذاكرين على رصيف البوصيري.

صعدت الطريق — ذات عصر — إلى مكتبات الموازيني، تأكدت من سهولة دسِّ النوتة الصغيرة داخل جيب الجاكتة العلوي، أزمعت أن أسجِّل فيها أحداث يومي كلها، وما أعيشه من لحظة استيقاظي في الصباح إلى تهيُّئي للنوم. أستعيد ما علِق من ضبابية الحلم، اليوم أربع وعشرون ساعة، هل ما حدث قد حدث بالفعل، أو أنَّ الحلم تداخل في حركة اليوم، فتصورت أنه ما حدث! تأخذني المشغوليات، أحاول الاستعادة، أسجِّل ما يصل الأحداث،

لا أغفل شيئًا، لا أفلت حتى التأمُّلات الشخصية واستعادة الذكريات، لا يشغلني التذكُّر في ذاته؛ إنما متى جرت الواقعة؟ وكيف؟ وأين؟

إذا بدَّلت ثيابي، فإنني أتأكد من دسِّ النوتة الصغيرة في الجيب العلوي للجاكت أو البيجامة أو الجلباب، يختفي الجيب فأطمئن إلى موضع النوتة في جيب البنطلون الخلفي، تدوين ما ألاحظه، ما ألامسه، ما يلفت انتباهي، أعيش حياة حقيقية، وحياة في الحلم، أكتب كل شيء، ما أحياه — بالمعايشة المتيقظة — يمكن أن يساعدني في الغربلة، التفرقة بين ما جرى في الواقع، وما جرى في الحلم؛ الوقت، طبيعة المكان، الكلمات المتبادَلة، حتى التفصيلات الهامشية، التي لا تثير الانتباه.

امتلأت النوتة بالكثير من الأرقام والحكايات والمشاهدات والملاحظات والأسئلة والآراء والنكت، أسجِّل ما حدث، أهمل التعليقات، لا أكتب: في رأيي، أظن أن، ألاحظ، هذا خطأ، هذا صواب.

أغمض العينين عند الاستيقاظ، لا أفتحهما، أستعيد ما جرى في النوم، ما أتذكره من الأحلام والكوابيس، أشرد في الأحلام التي لا تزول، والأحلام العابرة، وأحلام اليقظة، والمنامات والكوابيس، الكوابيس لا تشغلني، لا أوفِّق — عند الصحو — في لملمة ما رأيته، تختلط الأنياب والمخالب والأجسام الهائلة والزئير والصراخ، المشاهد متقطعة كما التشويش في التليفزيون.

ربما الاستيقاظ مخرج من كابوس أتعبني، أنتفض بجسدي كلِّه، بآخر ما عندي، أحرِّك أطرافي حتى يبتعد الكابوس، أعود إلى ما لا يخيفني.

بدا الانزعاج في عينَي زوجتي: «كنت تصرخ؟!»

– كابوس مخيف.

– زال والحمد لله.

ومضت خارج الغرفة: «سأحضر لك كوب ماء.»

استعدت الرؤى، وأنا ألتقط أنفاسي: أجري بكل قوتي، والسكين الهائلة في يد الرجل الذي يطاردني ... تلامس جسدي. حسرت الجلباب، نظرت إلى موضع الملامسة، في منتصف البطن تمامًا، بدت الثقوب الحمراء الصغيرة، كان ما عانيته في أثناء النوم قد جرى بالفعل.

تبيَّنت أن الحلم لا ينقطع بالاستيقاظ، أعود إلى النوم، فيعود الحلم إلى تواصله، هو الحلم نفسه بتفصيلاته. قلت لزوجتي: «أيقظتِني من حلم جميل.»

بدا الحلم في انفصاله بالصحو واتصاله، كأنه بلا نهاية، أغمضت عينَي، كأني أعود إلى النوم، استغرقت في النوم بالفعل، في حلمٍ أحببتُ ما جرى فيه.

ضِقت بكثرة ما رأيت، بدأت في استعادة ما أذكره من الأحلام، ألتقط ما يبدو غريبًا، وغير مألوف، وما يحتاج إلى تفسير. تكتفي زوجتي بالقول: «خير؟»

وحين رأيتني في قبوٍ مظلمٍ كالقبر، قال لي عبد الله فودة: «إن الموت في الحلم يعني طول الحياة»، شغلني — في الفترة الأخيرة — ما كنت أصحو على مشاهدته، تختلط الرؤى، وتتشابك، تبدو واضحة، أو يلفُّها الشحوب، يتبدَّل الأشخاص والتصرفات، تظل الأماكن على حالها، كأنها القدس بالأقصى وحائط البراق وقبة الصخرة (ثبتت الصورة في ذاكرتي منذ الطفولة)، والتلال المحيطة والمآذن وأبراج الكنائس وبيت الشرق والبيوت القديمة (شاهدتها في فيلم تسجيلي) والنوافذ الأشبه بالمشربيات والمصاطب والبواكي والبازارات والدكاكين ذات الأبواب الحديدية، ومعاصر الزيتون وباعة الخضار والفاكهة والخبز والميرمية والشوارع الضيقة والأزقة والأسوار والقلاع والحصون والأبواب التاريخية والأقبية والأضواء المتسللة من القيساريات (لاحظت المَشاهد نفسها تتكرر في كل المدن العربية القديمة) وأعمدة النور ومفارق الطرق والميادين والساحات وباب الخليل وباب العمود ومنطقة الباب الجديد ومنطقة القصور الأموية والملابس الفلسطينية والكوفية (قرأت — آخر الليل — كتابًا عن القدس) والبساتين وأشجار الصنوبر والزيتون والبرتقال والنخيل والزعتر والنرجس والحنون (أسماء متكررة في الإبداعات الفلسطينية) واختلاط روائح البخور والزعتر والبهارات والفلافل وتبغ النارجيلات، تقارب الحلم، تكرر — في الليلة الواحدة — أكثر من مرة، كأنه صور متلاحقة، ما يختفي تحل — بدلًا منه — صور أخرى، تتعدد الصور، لكنَّ الملامح والألوان والظلال تعمِّق المشهد الكلي، وتثبته، رؤى شفيفة، هامسة، كحلمٍ، أو تقتحم نومي بالرؤى مرة، وأن تتغير المواقف والتصرفات والكلمات، كأنها كابوس.

مقام الصحو

يعرف مقابر العمود، تردَّد عليها بصحبة أبيه، منطقة الطوبجية ملاصِقة للمقابر، بلا سورٍ فاصلٍ بجوار المستشفى العمالي، الأسوار العالية تحيط بالطرقات المتقاطعة والأحواش، دخلا الباب الذي استلقت ضلفتاه على الحائط، خلف سوق الأغنام، وباقات الخوص والزهور والورود والرياحين والنعناع، والصدقة، والرحمة والنور.

سار في الأرض الترابية، على جانبيها أحواش، تتخلَّلها قبور بلا شواهد، لم تعُد الأحواش — كما كان يذكر — ذات أبواب خشبية مغلقة، أو مفتوحة، تتناثر بينها أشجار صبار، إلى جانب كل باب لافتة نحاسية باسم شخص، أو عائلة، يُنسَب إليها المدفن.

غاب عنه موضع حوش عائلته.

في آخر زيارة، شاهد اللوحة المعدنية على الجدار، إلى جانب الباب، اختفت اللوحة، واختفى الباب الخشبي الضخم، وتعريشة اللبلاب التي كانت تصنع سقفًا للحوش.

قلَّب في أوراقه، استعاد الاسم ورقم التليفون من البطاقة الصغيرة، ترامى الصوت، يعتذر بموت التُّربي، وانشغال أبنائه بمهن أخرى.

فطن الصوت إلى حيرته:

– لمن المدفن؟

– طه الدسوقي.

ما أذكره أن المدفن ضمن الأحواش الثلاثين على اليمين، في نهاية شارع الرحمة.

وجد في الكلمات طرف خيط، التقطَه، سار في شارع الرحمة إلى قرب نهايته، تبدَّل المكان بما لم يعُد يذكره، تجاورت الأحواش والشواهد والمقابر، تشابهت، لم يعرف في اختلاطها أين مدفن العائلة، نُزعت الأبواب والنوافذ الحديدية المطلة على خارج الأسوار، والمقابض ضاعت، وتساقط الطلاء، وذوَت أشجار الصبار، ما حدث كأنه بفعل تخريب،

وليس لعامل الزمن، تناثرت المقابر بين الأحواش، وعلى جانبَي الطرقات، امتدَّت الحِبال أعلى الجدران المتقابِلة، علِّقت عليها ملابس مغسولة.

أنفاس الموت في الأحواش والأسوار الحجرية والقبور والشواهد والسكون وطنين الذباب والرائحة التي يصعب تفسيرها. هل بدأ التردُّد على المقابر لإحساسه بالنهاية؟ أيكون قريبًا بعد تقدم العمر؟

هذه هي السن التي تتحرك — في مساحتها الضيقة — أفكار الموت، تسيطر عليه عشرات الرؤى والتصورات والتخيلات. لم يناقش أسئلة من أي نوعٍ، وإن اطمأن إلى أنه يجب أن يرقد إلى جانب أمه وأبيه في هذه المقبرة تحت الضريح، الذي يتوسط الحوش.

كان أول تفكيره في زيارة المقابر، حين ظهر أبوه في المنام، لم تفلح ابتسامته في مداراة ما بداخله من استياء: هل نسيتَني؟

تكرر الحلم، والسؤال الذي لم يتغير.

قال فهمي دعبس، زميله في المكتب المجاور أنه «سيتأخر غدًا لزيارة مقابر المنارة في طلعة رجب.» استطرد في نبرة معتذرة: «أشهر قليلة مضت على وفاة أبي.»

مضت في حياته أشهر وأعوام، نسي الأمر تمامًا، أصرَّت أمه أن تبيت إلى جانب القبر، تهوِّن على الميت حساب المَلَكين، تدعو بالمغفرة، لا يذكر متى كانت آخر زياراته إلى العمود، ربما قبل عشرة أعوام، وربما أكثر، أعدَّ ترتيبات جنازة أبيه، واستخرج تصريح الدفن، وشيَّع الجنازة. اخترقت الجنازة شارع الميدان إلى التقائه بسوق راتب، صُلي على الجثمان في جامع الشيخ، اتجهت ناحية ميدان المنشية، مالت في شارع السبع بنات حتى مقابر العمود.

صحب أخته وأبناءها صباح اليوم التالي لزيارة شق القبر، التقط التسمية من أخته، هو يوم الحساب، يسأله المَلَكان عن أفعال حياته، يجيب بما حدث تمامًا، إذا أخفى، فإن القدرة تُنطِق جوارحه؛ قعودهم حول الضريح؛ للتخفيف من معاناته.

دخل — في مرات كثيرة — من الباب الحجري المنزوع الباب إلى شارع الرحمة، تتوقف الخطوات عند قبور أقارب وأصدقاء وزملاء عمل.

صحب أخته في العيدين وطلعة رجب، قبلت اعتذاره — يومًا — بظروف العمل، تباعدت زياراته؛ حتى أهمل الأمر تمامًا، لم يعُد يتردد على العمود.

ركب الترام من بحري إلى كرموز، عبَر الميدان الصغير إلى باب العمود، شارع الرحمة، يذكر التسمية على اللافتة يسار الشارع الترابي الطويل، القبور المتلاصقة داخل الأحواش،

وبين الطرقات — لم تكن موجودة — تجعل السير صعبًا، تأمَّل بنظرة دهشة، حَمْل جثمان من النعش خارج الأحواش، والسير به بصعوبة بين المقابر إلى داخل المدافن.

سار — بالتذكُّر — قبل أن يلتقي الرجل ذا السحنة المغبرة والجلباب المرفوع إلى خصره، ويجرُّ خلفه فأسًا:

– أين حوش عائلة الدسوقي؟

قال الرجل: «لم يعد أفراد عائلة الدسوقي يأتون، أعرف أنهم اشتروا في المنارة.»

ثم، وهو يهيل التراب على المجاديل: «الموتى في قبورهم، الحوش — الآن — لعائلة تعيلب.»

واتجه إليه متسائلًا: «ألم تستضيفوا موتاهم في الحوش؟»

ثم، في لهجة تسليمٍ: «هم الآن أصحابه.»

هزَّ رأسه برفض التصوُّر أن أباه يُدفن في مقبرة عائلة غير عائلته، تعيلب أقارب من بعيدٍ، لكنهم ليسوا عائلته.

لم يعد الحوش كما يذكره، كما عهده من آخر زياراته قبل عشرين عامًا، مستطيلًا، واسعًا، بلا سقفٍ، وإن ظلَّلت جانبًا منه شجرة كثيرة الأغصان والأوراق، وثمة الكنبة الخشبية والأرضية الرخام، والردهة المخصَّصة للنساء، إلى جانب الحوش، على اليمين — لصق الجدار — قبر صدقة، يُدفَن فيه مَن لا أهل له، أو لا يملك مدفنًا خاصًّا.

حدَّق في الرجل، علِق التراب برموشه، وتناثرت في بشرته ندوبٌ وخدوش وأوساخ، وغطَّت الصفرة أسنانه.

شملته ارتجافة، تصوَّر يديه على جسده، تلامسانه، تقبضان عليه، تنتزعانه من الأيدي لتغيِّباه، اليدان تحملان الميت، تهبطان به إلى داخل الحفرة الترابية، ثم تعيدان المجاديل إلى موضعها، وتهيلان التراب، يرفع قامته بعد أن غُيِّب في باطن الأرض عمرًا. لاحظ الرجل نظرته المحدقة: «الدفن شغلي.»

ثم، وهو يجول بعينيه فيما حوله: «أنا أحكم مدينة من الموتى!»

وأحاط مقبض الفأس براحتيه: «لكن الأحياء يحتاجون إليها.»

وافترت شفتاه عن ابتسامة فاترة: «الشباب والشيوخ سيموتون، الفرق أنه كلما تقدَّم بنا العمر أخذتنا الفكرة.»

على الجدران أسماء، قدَّر أنها لموتى دُفِنوا في الحوش، وأرقام طُمِس معظمها، فتصعب القراءة، لو أن الأعداد الهائلة من موتى العائلة خرجت إلى ظهر الدنيا، لامتلأت الشوارع

والميادين والأحياء والمدن القريبة والبعيدة، إلى مناطق لا تخطر في البال، أعداد يصعب حصرها؛ المقبرة ليست مجرد بناءٍ يتركه إلى بناء آخر، هي تاريخ العائلة من زمن لا يذكره، أو أنه لا يعرفه.

قال: «ليس بيني وبين الموتى خصومة، خصومتي مع من دفنوهم في قبورنا.»

قال الرجل: «أنا لا أفتش عن أصل الموتى.»

واتجه بنظراته ناحية الباب: «يصحبهم أهلهم موتى إلى هنا.»

وأردف في لهجة تقريرية: «حق الموتى في الدفن مسئولية إدارية، الحي هو الذي ينظم الأمور.»

ورفع صوته في إنهاء للحوار: «ناس كثيرون يطلبون الدفن، إدارة الحي لا تستطيع أن تفعل شيئًا.»

طالعه ما لم يتصوره، وأخافه؛ عشرات السحن — لم يكن رآها — تلاصقت في الحوش، بين الشواهد وشجيرات الصبار، واستندت إلى الجدران، تداخلت التكوينات والملامح، لم يستطع أن يميزها، ثم ميَّز — من بينها — أباه وأمه وأعمامه، ووجوهًا أخرى فطن إلى أنها لأفرادٍ من عائلته، وطفلًا يكاد يفرد قامته، خمَّن أنه أخوه الأصغر الذي مات، وهو في مثل سنِّه.

– هل قاموا من الموت؟

استعاد ما كانت ترويه أمه عن ظهور أرواح الموتى في المقابر، وحكايات أبيه عن عفاريت القيالة.

السكون هو الذي يحرِّض أرواح الموتى على التجوُّل في المقابر، تتحوَّل إلى دنيا ثانية، لا أكفان مما التفت بها داخل المقابر، ولكن لباس الحياة الدنيا، ما كانت ترتديه قبل أن تثبت حركتها، جلابيب وبدل وقفاطين وجبب وفساتين وتاييرات، ذلك ما يحدث وقت القيالة، تنقطع الرِّجل في الطرق الترابية.

ما بين أول الليل وآخره، تنتقل أرواح الموتى تحت خيمة الظلمة. ذاب ارتباكه في العبارات المرحِّبة والنداءات والهمسات والأسئلة.

أدرك أن روح أبيه لم تفارق البيت، يظهر التكوين الجسدي في ومضات سريعة، يعلو وقع قدميه على سُلم البيت وفي داخل الشقة، تتحرك صورته المعلَّقة على جدار الصالة.

لم يعُد — بعد الأربعين — يضيء البيت، يعرف أن الروح تذهب بعد انقضاء المدة، تعود إلى مستقرها.

قال الأب: «لا أدري إن كنت قد جئت في موعدك، رقادنا طال تحت التراب!»

ونطقت عيناه باللوم: «كاد اليأس يميتنا مرة ثانية من قدومك.»

أستطرد للدهشة في ملامحه: «عائلة تعيلب شغلوا الحوش، لا يتركونه، لا نجد فرصة للانطلاق.»

تحركت الأجساد الطيفية، اقتعدت الأضرحة وحافة السور، تناثرت في الزوايا، حلقت أعلى الحوش، كأنها سحب صغيرة متداخلة، لاذ بعضها بأغصان الشجرة المطلة من الحوش الخلفي.

لم يرَ شيئًا يستعين به أبوه، ولا مَن حوله، في التحليق داخل الحوش وخارجه، يختلطون في البراح بأطيافٍ أخرى، أرواح أخرى، محلِّقة، لا نهاية لها.

جلس أبوه فوق الجدار، متقاطع الساقَين، وظهره كمن أسنده إلى الفراغ.

ألمٌ فظيع تقلصت به ملامح أبيه قبل أن يتحشرج صوته بما لم يألَفه: «هل هذا هو الموت؟» فطن أبوه إلى ما يدور في باله، استعاد ما جرى، لم يجرِّب هذا الشعور من قبل، تنفصل الروح عن الجسد، يظل الجسد ساكنًا، هامدًا، يدركه التحلُّل، بينما الروح تحوم في سماء الشقة.

معنى الموت نهاية كل شيء، الروح لا حيلة لها، الجسد هو الذي يقدر على الفعل، لكن الجسد — وحده — يعاني من التحلُّل والتلاشي، الروح تحلِّق في السموات، وإن ظلَّت أربعين يومًا في فراغ الحجرات؛ قوى خفية تمنعها من أن تنطلق عبر النوافذ إلى الفضاء الممتد بلا آفاقٍ، تظل داخل الشقة فترة معروفة، أربعون يومًا وينتهي كل شيء، تنتقل إلى آفاق أخرى، حاول أن يضع لها تصورًا؛ مما يتذكره من جلساتٍ بين أمه وأبيه، بينهما وبين جدته وأقاربه. بقي في الأربعين يومًا داخل الشقة، شاهد ما جرى، حتى حمل الرجال جثمانه إلى باب البيت، راقب توسيدة النعش المفتوح، إسدال الغطاء الهرمي فوقه، انطلاق الجنازة، كلٌّ يريد أن يكسب ثواب المشاركة في حمل النعش. تابع الخطوات المهرولة، حتى مالت الجنازة في انحناءة الطريق، الانتظار داخل الشقة هو ما يملكه، عرف أن حرص أبنائه على إضاءة الحجرات كلها، كي تذهب الوحشة عنه.

أصرَّ أن يرافقه إخوته خارج البيت، مضى يوم، وثانٍ، وثالث، ظلَّت الشقة مضاءة، ومغلَقة، طيلة الأيام الأربعين. ليس لدى الروح في الحياة ما تفعله، ربما تعود إلى الأماكن التي أمضى فيه المرء حياته، تحوم، تحلِّق، تطمئن إلى الأحوال، تظهر في المنامات، لتواسي، وتحثُّ على المواجهة.

قال الأب: «ألزمتنا عائلة تعيلب قبورنا، بينما الأرواح الأخرى تنطلق بين أحواش الموتى دون محاسبة.»

قال كهل يقارب الخمسين، اطمأن له بمشاعر القرب: «لكي نظل في قبورنا، لا بد أن تحرص على الحوش!»

تحركت شفتا عم إسكندر بما لم يتبيَّنه.

استعاد الكلمات، تلكأ العم شفيق الحلي في نطق الحروف: «لا تبتعدوا!»

كيف تتقبَّل أرواح الموتى ردم المقابر؟ كيف تتقبَّل نقل الأجداث إلى مواضع أخرى، تختلف عن المواضع التي رقدت فيها، وواجهت حساب المَلَكين، وتفسُّخ الجسد، الجماجم والعظام والتراب والديدان، تحلُّله، امتزاجه — ترابًا — بأرض المكان؟! سار بين الأحواش وشواهد القبور في اتجاه الباب الخارجي.

الموظف — في إدارة الجبانات بحي غرب — جرى على الأسماء المثبَتة في الكشكول الهائل، وقال بنبرة تأكيدٍ: «الحوش باسم عائلة الدسوقي.»

– هي عائلتي.

– ما شكواك؟

– العائلة التي تنسِب الحوش إلى نفسها.

– استولوا عليه بالقوة؟

– أبي وأعمامي أتاحوه لهم.

وأغمض عينيه في تأثُّر: «لم يكن لموتاهم مدفن.»

– هل كنتم تتردَّدون عليه؟ تزورونه؟

– اشترت أُسَر العائلة في المنارة، قلَّ التردُّد على العمود، ثم لم يعُد يذهب أحد.

– لذلك نسبوه إلى أنفسهم.

– بماذا تنصحني؟

– العودة إلى المكان.

– كيف؟

عرض الرجل أن يتولى هو الإجراءات بنفسه، يعنى بجمع البيانات والمذكرات والعقود، وكل ما له صلة بالمقبرة، أراضي المدافن جميعها ملك للدولة، السائد هو حق الانتفاع للمقبرة، العقد ممتد لا ينتهي، ويُورَّث.

– ربما انتقلت مدافن العمود إلى المدافن الأخرى، لماذا لا تنتقلون إلى المنارة أو سيدي بشر أو المندرة أو الدخيلة أو المكس أو كوم الشقافة؟

ظل صامتًا، يغالب الارتباك، داخَله شعور أن الرجل يطيل في التسويف؛ كي لا تستعيد عائلته الحوش، علا صوت الموظف بلهجة رافضة: «عملي أن أقرَّ بحقِّك، وعليك أن تحصل عليه.»

ودسَّ عينيه في الأوراق؛ بما يعني أنه قال ما عنده.

رفة ابتسامة

غالب ارتعاشة في أسفل ظهره وساقيه، حتى انفتح الباب الحديدي أمامه، غطَّى الدم وجه الشاب وملابسه، أغمض عينيه، وفتح فمَه، وبدا كأنه لا يستطيع الوقوف، كأنه يعاني الموت؛ وهو يسند ذراعيه إلى كتفَي الرجلين.

تلفَّت بالخوف.

الطرقة مظلِمة، إلا من ضوءٍ خافتٍ يصدر عن لمبة تعلو الدكة الصغيرة، إلى جانبَيه جنديان سكنت نظراتهما، يشحب الضوء في مدى الرؤية حتى يغيب تمامًا.

أعاد النظر إلى ما انكشف عنه الباب المفتوح، لا شيء، عدا كرسي معدني يتوسط الحجرة المصمتة الجدران، من فوقه مصباح عالي الضوء.

استغرقه تداخل الصيحات والصرخات داخل الحجرة المغلقة، في ذهنه حكايات عن الحياة داخل المبنى، الذي لم تُتِح له العِصابة على عينيه رؤيته، نسي ما سمعه من أساليب التحقيق، وإن استقرت الصور في ذهنه بما يخيفه.

منذ اقتيد في أولى ساعات الفجر، لزم الصمت، لم يومئ؛ حتى بما يدل على معنًى، طرف خيط يكرُّونه لبلوغ الآخرين، حين أمر الرجل ذو الشارب الفضي الكث، أن يقتادوه إلى حيث هو، وعد نفسه بأن يظل في صمته، لا يعطي انتباهًا، ولا يلتفت. تململ لتعثر الشاب في خطواته الزاحفة، كأنه يلامس الأرض بأطراف قدميه.

لمح رفة ابتسامة على شفتَي الشاب في نظرته الوامضة ناحيته، والرجلان يمضيان به في الطرقة الطويلة، حتى تلاشت المرئيات في الظلمة.

غواية

حين صعد الشبان الخمسة إلى عربة المترو، كان يقرأ جريدة، وهو واقف في الزاوية بين ظهر المقعد والباب المغلق من الناحية المقابلة. كانت المقاعد ممتلئة، وتناثر الوقوف في المساحات الخالية.

استأنف الشبان كلامهم في وقفتهم بالقرب منه، تشاغل بقراءة الجريدة، وإن عكست تعبيرات وجهه ما يبيِّن أنه يتابع نقاشهم. التقط ملاحظة الشاب المنمَّش البشرة عن انتصاف النهار دون أن يتناولوا طعامًا، أخرج من جيب الجاكت قطعة شوكولاتة، همس بلهجة مشفِقة: «تصبيرة!»

تنبَّه له الشبان.

أطالوا التحديق في ملامحه وهيئته: في حوالي الخامسة والأربعين، يرتدي بدلة رمادية، ورباط عنق من اللون نفسه، عيناه قلقتان لا تستقران بين أجفانه الضيقة، فهو يطبق جفنَيه، ويفتحهما، في حركة عفوية، سريعة، ويكثر من رفع إصبعه؛ ليعيد النظارة المنزلقة على الأنف إلى موضعها، ويمسك في يده منديلًا لتنشيف العرق المتصبِّب في وجهه.

قال الشاب الطويل القامة: «وأنا ... أليس لي قطعة شوكولاتة؟»

رسم على وجهه ابتسامة واسعة، وأشار إلى الشاب المنمش البشرة: «أعطيته قطعة كنت أحتفظ بها لنفسي.»

التقط الشاب ارتجافة في عينيه، فقال: «لا شأن لي ... أريد شوكولاتة.»

غلبه ارتباك، بدا منطويًا على نفسه، ومتخاذلًا، رفع الجريدة بيده مثل مَن يحاول الدفاع عن نفسه، تشجع الشاب الطويل فاختطف الجريدة، علَت ضحكات الشبان، امتدت يد الشاب المنمش البشرة إلى الجيب العلوي، أخذ القلم، وقذف به في الهواء، التقطه، أعاد ما فعله مرات، ثم قذف به من النافذة.

صرخ: «القلم!»

انعكست نظراتهم ارتجافة في عينيه، وشى تلفُّته أنه يريد الابتعاد، تقدَّموا نحوه في نصف دائرة، عاد بظهره إلى الوراء حتى التصق بالجدار، ظلُّوا يرمقونه بنظراتٍ قاسية، ويكوِّرون قبضاتهم، ويقتربون، يقتربون.

كان الشاب الممتلئ الجسد أقربهم إليه، صفعه بظهر كفِّه، تبعه الشاب الطويل ذو النظارة الطبية بلكمة، شجعهم تكوُّره على نفسه، وملامحه الخائفة، على معاودة ضربه، انهالت قبضاتهم وركلاتهم على جسده، لا تتخيَّر الموضع الذي تصيبه.

الجسر

إلى مريد البرغوثي، تحية له، ولرام الله.

حين دخلت المقهى المطل على الميدان، فلأنه بدا أقرب الأماكن إلى الجسر، ولأني كنت أريد أن أستعيد ما حدث.

التفتُّ — بعفوية — ورائي، قبل أن أخطو داخل الجسر، يسبقني ويتبعني العشرات، رجال ونساء وأطفال، يحملون الحقائب والأكياس، أو يكتفون بحافظة ورق. يصدر عن وطء أقدامهم لخشب الجسر تلاغط طقطقة. أعرف أن المئات يعبرون الجسر كل يومٍ؛ عمان هي الترانزيت، ميناء العبور من مدن المنفى وإليها، أحاذر في خطواتي، الطقطقة المنبعثة من تحت القدمين تشي بقرب سقوطه.

لم أتبيَّن من تقارب السحن والملابس، وحتى اللغة العربية التي كان يتحدث بها الجميع، مَن هم منا، ومَن هم من الإسرائيليين. شردت في روايات أبي، ونحن نجلس في الشرفة المطلة على المنتزه، عن جيرته لأسرة يهودية في حي الظاهر، أعوام دراسته في القاهرة، فضَّلت أن ألوذ بالصمت والانطواء، لا أتكلم إلا إجابة عن سؤال.

قدمت أوراق أمنا وأوراقي إلى الضابط الإسرائيلي من كوة النافذة الزجاجية، أشار بيده إلى صفوف الكراسي في الصالة المستطيلة، تنبَّهت من الشرود الذي أخذني على النداء باسم أمنا، واسمي، دفع الضابط بالأوراق من وراء الكوة: «المرأة تدخل.»

ونقر بإصبعه على بقية الأوراق: «حاتم عبد الهادي ... لا يوجد تصريح بالدخول.»

دنوت من الكوة الصغيرة: «أرجو أن تتأكد ... أنا من مواطني رام الله.»

من دون أن يزايل هدوءه: «أنقل عن الأوراق، وليس عن مزاجي.»

غلبني الارتباك، لم أعرف من ينبغي أن أتجه إليه، فتكلمت إلى كل من أنصت لي، غلبني اليأس، حاولت أن أتجنَّب الوداع الذي لم أكن أعددت له نفسي.

أومأت أمي إلى رأسها، حملتُ الحقيبة، ووضعتُها عليه، أشفقتُ لاهتزاز جسدها تحت ثقل الحقيبة.

حتى لا تتقابل عينانا، تظاهرت بمتابعة الحركة في نهاية الجسر، لم أكد أتابع سيرها البطيء، حتى التفتت بجسدها كلِّه، كأنها حدست أني أحتضنها بنظرتي.

لوَّحت بيدي، في مغالبة الارتباك، وابتعدت.

– غريب أننا نستطيع لمَّ شملنا في باريس، ولا نستطيع ذلك في فلسطين.

كانت هذه المرة الأولى، التي تغادر فيها أمنا رام الله، لم تغادرها حتى أيام الاحتلال، ولا أيام السلطة الوطنية. تصفَّح الضابط الإسرائيلي طلب التصريح لها بالخروج من رام الله، واتته الرغبة في الدعابة: «تريدين الالتقاء بأولادك في باريس، لماذا لا تقيمين هناك، إنها مدينة جميلة.»

اكتفت أمنا بالقول: «رام الله أجمل!»

ربت كتفها: «لا شيء يظل على حاله.»

سافرت مع أمي من رام الله إلى عمَّان، سافر خالد من القاهرة، كنت — أنت — تنتظرنا في باريس، تنبَّهت إلى موضعك خارج مبنى المطار من صيحة أمنا: «نايف.»

وأنا أدفع إليك بالكيس البلاستيك: «هذه زجاجة زيت زيتون ...»

واحتضنت كتفك: «أردت أن أذكِّرك بزيتون رام الله.»

التمعت عيناكِ بومضة حزينة: «هل تغيب رام الله عن بالي فأحاول تذكُّرها؟» وعلا صوتك بالانفعال: «أنا هنا أفتقد حتى الحجر الأبيض الذي بُنِيت منه رام الله.»

قال خالد: «الطمي في حياة المصريين من قبل أن يعيشوا في الوادي، لكنهم — في الأزمنة القديمة — فضَّلوا أن يشيِّدوا البيوت والمقابر بالحجر، وليس بالطوب اللبن.»

استعدت نظرتي إلى البنايات المقابلة: «لماذا اخترت الإقامة في هذا الشارع الخلفي؟»

– «لرخص الشقة النسبي، ولأن البيت قريب من الحي الذي يقيم فيه العرب.» ثم، وأنت تشير بامتداد ذراعك: «على بُعد أقل من مائتي مترٍ يوجد المسجد ومحال الأطعمة المغربية ومقهى أم كلثوم والمقاهي التي يتردد عليها العرب.»

تحدثت عن حرصك — في أيام إقامتك الأولى — على الانتقال بالمترو، شبكته الهائلة تغطي قلب باريس وضواحيها، وضعتَ خريطة المترو في جيبك، وتنقَّلت بين المترو الأحمر

والمترو الأزرق، تجد نفسك في المكان الذي تقصده، سافرت للعمل في جمع العنب، كان الجليد قد حرق المحصول في ١٩٧٤م، تجوَّلت — بلا عملٍ — في المدينة، مضيت إلى الأماكن التي تقصدها من أسهمٍ تشير إلى مسار الاتجاهات، الشوارع الواسعة، والبنايات ذات المقرنصات والنقوش، وتماثيل الميادين، وأشجار المارون والبلانتين والكستناء، وتنقل خطواتك في الشانزلزيه وساحة الباستيل وأمام الأوبرا واللوفر وقوس النصر وعلى شاطئ السين، ومربعات البازلت أمام كاتدرائية نوتردام، تتأمَّل الجداريات المنحوتة والتماثيل التي تتخلل البناء. لم تعد تخشى حتى الشرود، أو الابتعاد عن المحطة، أو فقدان الطريق، تعود بالمترو المقابل إلى محطة البداية، تلجأ إلى مكاتب الاستعلامات داخل المحطة، أو تسأل رجال الشرطة بالإنجليزية، تتلقى الإجابة باللغة نفسها.

قال خالد: «المشكلة أن الفرنسيين الذين نطلب إرشادهم لا يتحدثون إلا الفرنسية.»

هززت إصبعك في الهواء: «قد يعرف الفرنسي لغة أخرى، لكنه يعتز بلغته.»

ثم، وأنت تومئ إلى المدى خارج النافذة: «إذا تعرَّفت إلى الأماكن على الخريطة جيدًا، فلن تحتاج إلى مَن تسأله.»

ورسمت على شفتيك ابتسامة مهوِّنة: «من الصعب على المرء أن يتوه في باريس؛ حتى لو قرر هو نفسه ذلك، يكفي أن ينظر — على النواصي — إلى الشوارع ومحطات المترو.»

أضاف خالد ملاحظة عن سهولة الإجراءات في مطار أورلي، سريعة، ولا تحتاج إلى الكثير من الكلام، يقدِّرون — ربما — أن السياح والزوار قد لا يعرفون الفرنسية، يلغون توقُّع الارتباك بوضع كلمات بالإنجليزية في بطاقة الدخول، دقائق قليلة كان يقف، والحقيبتان في يده، أمام باب المطار.

قلت: «تابع سائق التاكسي كلامنا.»

وأشرت إلى أمنا: «تكلم بالعربية ... عرفنا أنه جزائري.»

أمَّنت بهزة من رأسك: «عدد كبير من سائقي التاكسي جزائريون ومغاربة.»

وأشحت بيدك: «إذا كنا نعاني الاحتلال، فالكثير من العرب يعانون استبداد الأنظمة.»

وأنا أتأمَّل الشعرات البيضاء التي تسلَّلت إلى مقدمة رأسك وفوديك: «يستطيعون العودة إلى بلادهم، تظل أوطانهم، أما نحن فالأمر يختلف.»

تحدثت عن حبك للخضرة، ذلك ما أَلِفته في رام الله، وضعت في قلب السور المعدني المتوازي أصصًا فخارية، بها زهور وورود ونباتات تدلَّت أوراقها على الجدار، يهمك أن تطل — في أي وقت — على الخضرة التي تفتقدها، ليست الخضرة المترامية في أرض رام الله،

لكنها تذكِّرك بها، أحدس النشوة في انفراج شفتيك عن أسماء الأحياء والشوارع والبنايات؛ البيرة، المقاطعة، ميدان المنارة، شارع الإرسال، شارع القدس، قرية سردة، مبنى المحافظة، كنيسة الله، جامع العين، المكتبة، مقر الرئيس عرفات، حي المسيون، تماثيل الأسود الأربعة المنحوتة في حجر الورد، جامعة بير زيت، رام الله القديمة، تلال جبال القدس.

حذَّرك الساكن في شقة البناية المقابلة من أنه سيلجأ إلى الشرطة، إذا لم ترفع أحواض الزرع من فوق كورنيش الشرفة: «لاحِظ أنها توسخ واجهة البناية.»

وتداخلت في صوتك دهشة: «المهم أنه يسكن في بناية أخرى ...»

ثم بصوتٍ هامس: «رفعت الأحواض حتى لا تتدخل الشرطة.»

وأشرت إلى المدى خارج النافذة: «في أيام الآحاد أزور فونتناليه على بُعد ٥٠ كيلومترًا عن باريس، أحاول تعويض غياب خضرة رام الله.»

قال خالد: «إن ألفة المكان لا معنى لها في حياته، تنقَّل بين الكثير من المدن والشقق والفنادق، قبل أن يتم تعرُّفه إلى المفردات، ينتقل إلى ما لم يكن أعدَّ له نفسه باختياره، أو بانتهاء الإقامة، أو بإنهاء تصريح إقامته، يعتني بما في الحقائب أكثر من عنايته بما في الأدراج، الحقائب تسعفه وقت الرحيل الذي ربما يكون مفاجئًا، أما الأثاث فيظل في موضعه. اختلطت نوعيات الأثاث، وأوانه، وعدد الغرف، وسحن الجيران، والأماكن التي تطل عليها، تعرَّف إلى المئات في المنافي، زهقوا من الخيام وعشش الصفيح واستمارات هيئة الإغاثة، أخذتهم القبور والمعتقلات والمدن القريبة والبعيدة.»

– أنت تشاهد أفلامًا كثيرة في قناة الدراما، تختلط في ذهنك الأحداث، فتعجز عن تذكُّر أي فيلم!

تكلَّم عن ظروف وفاة والدنا، كانا بمفردهما في الشقة المطلَّة على ميدان الجيش، أسند رأسه إلى يديه، ثم سقط الرأس واليدان، وتهاوى الجسد كله.

أدرك أن شيئًا ما، يهدد أبانا بالخطر، شيئًا لا يستطيع أن يلمسه، أو يراه، وإن بدت أنفاسه قريبة، خمَّن أنه يعاني غيبوبة السكر، استغاث بالجيران والإسعاف، لكنَّ الحياة كانت فارقته.

غالبت أمي تأثُّرها: «ثاني مرة يفارقني في زواج أربعين سنة.»

ثم، وهي تغالب النشيج: «أصرَّ على أن يقضي رمضان في القاهرة.»

التمعت عيناك: «أجله!»

قالت أمي في تأثُّرها: «يؤلمني أني لم أكن معه، ولم أودعه.»

قال خالد: «شعبنا كله في قوائم الموتى الأحياء.»

ثم، وهو يهز المسبحة الصغيرة بأصابعه: «الموت في ظروفنا روتين.»

أضاف إلى نظرتي المتأمِّلة في المسبحة، في يده: «لم تفارقني منذ اشتريتها من خان الخليلي.»

وهرش رأسه بطرف إصبعه: «من الأشياء القليلة التي اخترتها بذوقي ...»

تكلم عن الزيارات التي يجريها عبر أسلاك التليفون؛ تناقش التقدم الدراسي، والمشكلات الصحية، وظروف الإقامة، والهجرة إلى المنافي، ومشروعات الزواج والطلاق، ونبرات الحنين والشوق واللوم والعتاب والأسى والخوف والسأم والملل.

تكلَّف ابتسامة: «أظن أن مخترع التليفون كان يتنبَّأ بحاجة الفلسطينيين إليه، بعد أن يشردوا في الأرض!»

اتجهت ناحيتي بنظرة متسائلة: «حاتم، ما أخبار رام الله؟» قلت: «مدينة تحت الاحتلال!»

– ماذا تفعل السلطة الفلسطينية؟

– الحدود إسرائيلية والعملة إسرائيلية والجوازات كذلك.

ثم، وأنا أظهر التململ: «كل شيء يخضع لسلطة الاحتلال!»

غابت أمي في زحام الناحية الأخرى من الجسر، حملتُ الحقيبة، ومِلتُ ناحية الضفة الشرقية، طالعتني تقاطعات الشوارع والميادين وزحام المارة والسيارات، جلستُ على أول مقهًى صادفته، أستعيد ما حدث. التفتُّ — بتلقائية — إلى رام الله الممتدة أمامي؛ البيوت المسقوفة بالقرميد، المتدرجة على الجبل، تتوسَّط مساحات الخضرة، والشوارع المسفلتة العريضة، والشوارع الترابية، والجبال، والكهوف الصخرية، والشعاب، وحقول الزيتون وكرم العنب والتين واللوز والمشمش، والتلال الخضر الممتدة إلى أفق البحر، والقرى الصغيرة فوق رءوس التلال.

تلاشى التوقُّع، وما يجدر بي أن أفعله، اجتذبتني الحيرة؛ لا أدري إن كنت سأبعث هذه الكلمات إليك، وما عنوان المرسِل الذي يجب أن أكتبه على مظروف الرسالة، أو أتصل بأمنا في رام الله، أو بنايف في القاهرة؟

اتجهت نظرتي إلى الجانب المقابل؛ تلال عمان السبعة، والمخيمات، بدت طريقًا وحيدة، لعلَّ المشاركة تدلُّني على خطواتي التالية.

الحقيقة تحتمل الكذب

اخترقنا الطرق الترابية الضيقة، على جانبيها أحواش يتوسَّطها شواهد القبور، ويتخلَّلها أضرحة منفردة، متجاورة، وأشجار صبَّار، وقطع حجارة، وكومات رمال، ويحيط بنا الفراغ، والخلاء، وصمت الموت.

في بالي حكايات أمي عن عفاريت القيالة، تفاجئ المارَّ في المقابر وحده بما لا يتوقعه، تسخطه، أو تسحبه إلى باطن الأرض، أو تصيبه بالخبال.

مِلنا إلى تقاطعات، حتى توقَّفنا أمام بابٍ خشبي، منزوع المصاريع، يعلو ثلاث درجات حجرية، أطلَّ من ورائه رجلٌ في حوالي الخمسين، أميَل إلى البدانة، على جانبَي عينيه الضيقتين عماص، أفطس الأنف، يرتدي جلبابًا شمَّر كمَّيه وذيله، وحافي القدمين. حدج الرجل أمي بنظرة متسائلة: «تأخرتم ... تصورت أنك بدَّلت الموعد!»

قالت أمي: «كنت سأتصل بك.»

لحقنا أمي في صعود الدرجات الرخامية الثلاث، فتح الرجل الباب الموارب، طالعنا الصمت، يعمقه ترامي نباح كلب، عبْر الجدران المتآكلة، وفي مدى الرؤية من حولنا حجراتٌ متهدمة، وأبواب منزوعة الضلف، وأشجار صبار، وشواهد بدت — لاقترابها — كأنها متلاصقة، وأضرحة، وقِباب، ومآذن صغيرة، ورائحة الموت.

تكوَّمت الرمال على جانبَي القبر المفتوح، ورفعت المجاديل، الضوء المنبعث من الفتحة في أعلى يغطي — بالكاد — بضعة أمتارٍ، والظلمة تلفُّ المكان، عدا الفسقية في أسفل، رمالٌ ممتزجة بالحناء.

اطمأنت أمي إلى وقفتي تحت سقيفة الصاج المموَّج، قبالة السلالم النازلة إلى القبر، أرقب تعالي الظلال أسفل الجدران، واصطباغها بالحمرة فوق الشواهد المتصاعدة في مدى الرؤية.

قال خالي نجاتي، وهو يشير إلى أشجار الصبار المتجاورة: «واحدة تكفي، جذور الأشجار تمتص دماء الموتى.»

شوَّحت أمي بيدها: «ليس صحيحًا.» ثم، وهي تغالب تأثُّرها: «التراب يأكل الدماء ... مثل باقي الجسد!»

ظلَّت عينا أبي — بعد وفاته — مفتوحتين، ثابتتين، لا تدوران في محجريهما، ولا تطرفان، حاولت أمي تسبيلهما، فظلَّتا على ما هما عليه.

لم يستطع أعمامي ولا أخوالي إغماضهما، حين قدم إمام جامع سيدي خضر القريب، قرأ الفاتحة والمعوذتين، وما لم أتبيَّنه من الأدعية، لكنَّ العينين ظلتا مفتوحتين، كأنهما قد ثبتتا على ما كانتا عليه، فلا يمكن إغماضهما.

قال الشيخ: «إنه ميت، لا يشعر بشيء!»

راحت عينا أمي في الفراغ: «أعرف أنَّ الموت لا بد أن يأتي، لكن لماذا بهذه الصورة؟!»

ووشى صوتها بحيرة: «لماذا عيناه مفتوحتان؟»

أضافت في حيرتها: «لماذا لا يستكمل الجسد نومَه بإغماض العينين؟!»

وهو يتحسَّس ذقنه: «ربما نسيتم إغماضهما عقب وفاته.»

– حاولت.

وطوَّحت يديها دلالة العجز. أشار خالي نجاتي إلى الشيخ ذي الجلباب للقعود في ركن الصالة، قال لنظرات أمي المتسائلة: «تلاوة القرآن رحمة.»

– «كلام الله جميل في الأوقات كلها.» وارتجفت ملامحها بالانفعال: «ما يشغلني كيف أغلق عينيه فأريحه؟»

وقالت في انفعالها: «قال لي: «ستظل عيناي مفتوحتين لأشاهد ما أخافه»، تصورت أنه يقصد المعنى.»

حدس القارئ ذو الصوت الأخن، أمام العينين اللتين رفضتا الإغماض، أنَّ أبي حيٌّ، ظل على تلاوته لآيات القرآن، يعاود رفع نظراته إلى عيني أبي، بتواصل تلاواته، سور قصيرة، وآيات من السور الطويلة.

ظلَّت عينا أبي مفتوحتين، لا يتحرك في داخلهما شيء، ولا تتجه نظراتهما إلى شيء محدد.

استعادت قول أبي إنه لن يغمض عينيه؛ حتى يشاهد ما ينتظر قدومه، تصيخ السمع إلى وقع قدميه، يكتفي بإيماءات التحية، حيث نجلس في الصالة وداخل الحجرات، يغلق

باب حجرته وراءه، يحمل ما يريد روايته لأمي، مما صادفه خارج البيت، يعلو صوت أبي بالانفعال، نلتقط من زيق الباب كلمات واضحة أو مدغمة، نصلها بتصورات، أنه يعاني في خارج البيت مما يرفضه، ولا قدرة على احتماله، تسبقه أمي في خروجهما من الحجرة، لا يستعيدان ما تكلَّما فيه داخل الحجرة، وإن أربد وجه أبي بالحزن، بينما أودعت أمي قلقًا في تسلُّل نظراتها إليه.

كان أبي — كما روت أمي — يدرك أن العمر قد لا يمتد به، حتى يبلغه النبأ الذي طال انتظاره له، كل ما تراه عيناه يلغي الأمل والانتظار والترقب والتوقع واللهفة والحنين، وكانت تفسر وتنقل نظراته بينها وبين الباب المغلق، هو يخشى ما قد نعانيه بعد وفاته، كان المجهول يشد عينيه، يجتذبهما فيكاد يغيب عما حوله.

تكلم — في أوقات عافيته — عن الخطر الذي لم يأذن له بأن يقترب من حياتنا وتساءل: «من يؤدي الدور نفسه لو أنه مضى؟» وشى توتُّر صوته بالعصبية: «حتى لو مت، لن أغمض عيني قبل أن أشاهد ما أتوقعه.»

أدركت أمي من ملاحظات الطبيب والنظرات المشفِقة، الصامتة، أنه يمضي إلى النهاية، كانت تحرص على تلبية ما أوصى به الطبيب، حذَّر من خطورة ماء السقيا لأبي على تقدُّم العلاج، أدركت المعنى لما فاجأ الطبيب إصرارها على إهمال طلب أبي كوب ماء، بالقول في نبرة خطابية: «أعطوه ما يطلبه!»

تقبَّلت فكرة الموت، توقَّعته، نحن نتوقع الموت، لكننا لا نعرف موعده، الموت حادثة، نهاية حكاية لا نضع نهايتها: «إذا حان الأجل فإن ملك الموت لن يستأذن.»

ثم في لهجة مستسلمة: «تصرفاته رهن بمشيئة الله!»

خيَّب الطبيب أملها لما صرَّح بالدفن، كانت تتوقَّع، تتمنَّى، أن يرفض التصريح، العينان جزء من جسد ميت، هما ميتتان؛ حتى لو ظلَّتا مفتوحتين، أنهما لا تريان شيئًا.

أهمل خالي نجاتي توسُّلات أمي، أصرَّ أن يواري جسد أبي التراب، دون أن تغيب النظرة الثابتة.

قال: «إكرام الميت دفنه.»

ومال برأسه: «هو الآن ميت، لا فرق إن فتح عينيه أم أغلقهما.»

– ظني أنه إذا ظلَّت عيناه مفتوحتين، فلن يكون له حساب.

استطردت موضحة: «لا بد لناكرٍ ونكير أن يتركاه وشأنه!»

وتعانقت راحتا يديها: عمومًا، هو كان طيبًا، ينتظر ما يبدِّل حياتنا.

أسلمت أمي عينيها للبكاء، وعمي في داخل القاعة المغلقة، يتابع تغسيل الحانوتي لأبي، وتكفينه، بينما العينان مفتوحتان. اختلطت حول القبر تلاوات القرآن، والأدعية، والابتهالات.

حين حمل الرجال جسد أبي إلى داخل القبر، مدَّت أمي يدها، تحاول منع توريته التراب، أحاطت يدَا خالي نجاتي بكتفَيها، وعاد بها إلى الوراء، وضع راحته على فمها، يمنعها من الصراخ، اخترق بها اللمة الملتفة حتى نهاية الحوش، ظل إلى جوارها، حتى ترامى صوت الشيخ بالتلقين، فعرف أنه قد تمَّت تسوية القبر.

كرر التُّربي ملاحظته في تعدُّد زياراتنا لأبي أيام طلعة رجب ومنتصف رمضان وأول أيام العيدين، بأن الجسد لم يطرأ عليه تغيُّر ما، اهترأ الكفن، وتمزق في مواضع كثيرة، لكن الجسد ظل على حاله، وظلت العينان مفتوحتين.

هبط خالي نجاتي إلى داخل القبر، وصعد ليؤمِّن على ملاحظة التربي.

استعادت أمي، ما قاله أبي، وتساءلت: «ماذا كان يريد أن يرى؟»

طافت بالمبخرة الخزفية حول القبر في منتصف الحوش، تلاحق تضوع المسك والمستكة والجاوي والحبهان بآيات من القرآن وبسملات وحوقلات وأدعية، حدست أنها تطلب الراحة لأبي، وإبعاد ما يشقي روحه، فيطمئن، تنشر البخور في الزوايا والأركان، وبأعلى ما تصل إليه يدها، تميل — بالآيات والأدعية — ناحية القبر، كأنها تحاول النفاذ من المجاديل، ينصت لها، فيجد التعزية والسلوى وهدوء النفس.

كان الألم ينطق في ملامحها، وهي تتحدث عن الواجب الذي لم تقدر على أدائه؛ أن تغمض عينَي زوجها الميت، فهو آخر واجباتها نحو أبي في حياتها، تطرح الأسئلة على نفسها، وتجيب عنها، إذا كان العجز الذي لا حيلة لها فيه عن أداء واجب، يخضعها للمساءلة يوم الحشر؟!

لم تعد أمي تلزم البيت إلا ساعات الليل، تتردد معظم النهار على الجوامع والزوايا والمقامات وأضرحة الأولياء، تصحبني، أو تذهب بمفردها، تطيل الوقفة، وتلاوة آيات القرآن وعبارات الاستغاثة والتذلل، ابتعدت بالخوف لرؤية الشيخ ذي العباءة الملونة، والذقن التي بلغت أسفل صدره، تصدر الحجرة المطلة — من نافذة حديدية — على ضريح سيدي كظمان، خالية من الأثاث تمامًا، عدا حصير ملون، فوقه شلتة يتربع عليها الرجل، وشلت خالية صنعت ما يشبه نصف الدائرة، يتوسَّطها حامل قرآن فتح المصحف داخل جانبيه، ودخان البخور المتصاعد يرسم أشكالًا تغلب عليها الرمادية في سقف الحجرة، وثمة عنكبوت استقر في نسيجه، في زاوية السقف.

تتناثر في أحاديث الشيخ كلمات استحضار الروح، ودم الهدهد، وجلد الغزال، والخفاش، والزعفران، والحبة السوداء، والحبر الزفر، والفراشات الملونة الميتة.

تكلمت أمي عن طيفٍ كأنه لأبي، يطوف حجرات البيت، لا يتلفَّت، ولا يستوقفه ما تتجه إليه نظراته، يتنقل بين الحجرات، يخترق الأبواب والجدران، ينفذ من قطع الأثاث، لا يهمس بينه وبين نفسه، أو يعلو صوته بسؤالٍ، عيناه في اتساعهما، والحزن يقلص ملامحه. أصاخت السمع عند ترامي أذان العشاء من جامع البوصيري إلى كلمات تبينتها بتوالي الأسئلة.

سبقتني إلى البيت.

قالت: «غدًا ... تصحبني لزيارة أبيك!»

لم أجد في ملامحها ما يشجعني على مجرد السؤال، أدركت أن القرار الذي اتخذَته، لا سبيل إلى مراجعته.

عند الضحى، رافقتها إلى ميدان المنشية، ركبنا الترام حتى مقابر العمود، اتجهنا إلى شارع الرحمة بين الأحواش والشواهد الساكنة، دفعت أمي الباب الخشبي المفضي إلى المقبرة الغارقة في الظلمة والصمت، ونباح كلب يترامى من موضعٍ بعيدٍ.

أصرَّت أمي أن تنزل القبر بنفسها.

ساعدها التربي في نزول الدرجات الخمس إلى الفسقية في أسفل، رأيتها — في الضوء الشاحب المتسلل من فوهة القبر — تميل على جسد أبي، تقرِّب فمها من أذنه، وتهمس.

مدَّت أمي أصابعها فأغمضت العينين.

ساعد الرجل أمي في صعودها من داخل القبر، التقطت همسة الرجل وهو يقترب بفمه من أذنها: «هذا ما كنتِ تستطيعين فعله.»

ما كادت تستقيم في وقفتها داخل الحوش الساكن، حتى أسلمت وجهها إلى يديها المرتجفتين، وراحت في البكاء.

تعدد الوسائل إلى المبتغى

لما طالت وقفتي إلى جانب الحقائب، بدأت في تبديل موضعي، أسندت الحقيبة لصق الجدار، اطمأننت إلى موضع جلستي فوقها، ثم اتجهت — بنظرة محدقة — ناحية القطار القادم، أرقب القضبان الملتمعة بألق الشمس، والسيمافورات، والتحويلات، والفلنكات الخشبية.

على الرصيف المواجه، تناثر ركاب قليلون، وباعة حقائب وأجولة وقفف وأسبتة وصناديق وأكياس، النفق — أسفل القضبان — هجره الناس، وانتشرت فيه الأوساخ والظلمة، لم يعد موصلًا بين ضفتَي الطريق، من خلف السور المقابل مآذن وأبراج وقِباب وطوابق عليا.

من نزلوا يقصدون المدينة الصغيرة، آخر المحطات، لا محطات أخرى يتجه إليها القطار، تتلفَّت نظراتهم في الاتجاهين، المحطة هي آخر ما ينتهي إليه القطار، يتوقف صوت أصكاك العربات، يصعد الركاب بتوقع العودة إلى محطة البداية، يعلو احتكاك القضبان في تحويل اتجاهها، يتبدَّل موضع القاطرة إلى الناحية المقابلة، ساعات، ثم تصدر صافرتها تأهبًا للرحلة المعاكسة.

يعرف الناس اسم المحطة، وإن لم يعد مكتوبًا على اللافتة، نزعته الأيدي من القوائم الخشبية، كانت ضمن محطات كثيرة، تأتي إليها القطارات، يسبقها التماع الأضواء الكاشفة على القضبان، اصطفاق مفاتيح التحويلات، نداء الموظف بموعد الرحلة التالية.

غابت مواعيد القطارات، لم تعد تأتي في موعدٍ محددٍ، أو تواصِل السير، أو تعود في موعد ينتظره الركاب.

أذكر حين كانت القطارات تنطلق إلى تفريعات في أراضٍ واسعة، مدن بعيدة، ينزل منها الركاب ويصعدون.

أعرف — دون أن أنظر إلى درجة العربة — نوعيات المسافرين التي تضمهم، وأشكال المقاعد، في ومضة خاطفة، ألمح الأزياء التي تميز الركاب بين عربة وأخرى، اختلاط البدل والجلابيب والفساتين والقفاطين والجبب والعباءات، وزحام الحقائب في الطرقة الواصلة بين عربتين.

تشغي المحطة عند وصول القطار بصخبٍ وزعيقٍ، تدبُّ الحركة، تختلط أحاديث الركاب والمودعين ونداءات الباعة وصافرة القطار وقرع الجرس إيذانًا ببدء الرحلة.

يقف القطار دقيقتين أو ثلاثًا، ثم يبدأ في التحرك، ربما انطلق من دون أن يبطئ، أو يتوقف، أمام المحطة، ينطلق كعاصفة، يخترق المدن الصغيرة والقرى والضواحي والأنفاق والزراعات والجبال والتلال والوديان والسهول والسلالم والكباري والأنفاق والسيمافورات والمزلقانات وأعمدة التليفون والتلغراف والأشجار المتقاربة، وتتناثر البنايات في آخر الأفق.

اعتدت الوقوف على المحطة، أنتظر قطارًا يبطئ في سرعته، ثم يتوقف، أو يمر الوقت فلا يأتي.

تسبق الصفارة الطويلة قدوم القطار، يعلو ما يشبه الاحتكاك في السيمافور العالي، أعرف أن عامل المحطة يفسح للقطار القادم طريقه، يظل القطار على سرعته في اقترابه، واندفاعه بعيدًا عن المحطة، القطارات تنطلق كهبة ريح، تصعب رؤية الركاب خلف النوافذ الزجاجية المغلقة، السرعة المذهلة التي ينطلق بها القطار، لا تتيح الرؤية الواضحة، أشبه بإدارة الشريط السينمائي بأضعاف سرعته، لا أكاد أحدق في مشهد استلفتني؛ حتى تكون العربات قد خلفت المحطة وراءها، أتابع آخر العربات في انطلاقها إلى محطات تالية، أرقب ابتعاد القطار، حتى يتحوَّل إلى نقطة صغيرة قبل أن يغيب في انحناءة نهاية الأفق.

لم أر المحطات التالية كلها، ولا وضعت لها صورًا أطمئن إليها، محطات القطار في أفلام السينما بناية خشبية، بابها يفضي إلى ما يشبه القاعة، يتدلَّى مصباح بترولي من أحد عوارض السقف، في الجانب شباك التذاكر، وإلى يسار المدخل جرس يعلن موعد قيام القطار. رُويت حكايات كثيرة عن أيام اتصال المحطة بمحطات أخرى، قبلها وبعدها، ليست — كما تدل صورتها الحالية — بعيدة عن العمران، لكنها — إن استردت موضعها — في قلبه، من كانوا يترددون عليها ينزلون فيها، أو يواصلون الرحلة إلى مدن تالية، يعيدون ما كان إلى سيرته الأولى.

كانت قطارات البخار تسدل غلالة من السواد على البيت وما حوله، في انطلاقها عبر المحطة، تلاشت الغلالة السوداء بقدوم قطارات الديزل، لكن الضوضاء ظلَّت على حالها في اندفاع القطارات.

توالت الأفعال التي جعلت إعادة المحطة إلى سابق عهدها متعذِّرة، القضبان علاها الصدأ، بينها أعشاب وحشائش صفراء، تخلَّلتها بقايا أشياء وأوساخ، نزعت القضبان لمسافة، بعيدًا عن رصيف المحطة، رفعت التحويلة من مكانها، تساقطت أسلاك من أبراج الهواتف والبرق، تحطمت أكشاك الإشارات، مالت الأعمدة أو تهاوت، ما يشبه المخزن المسقوف بكمرات الحديد والصاج، تلاصقت فيه عربات البضائع، وهياكل عربات الركاب.

غاب وقوف الناس يرقبون قدوم القطار، توقُّفه قبل أن يمضي إلى المحطات التالية، أو انطلاقه دون توقف، الجدران يتساند عليها الصناديق الكرتونية والسلال والصرر والقفف والأقفاص.

لم تعُد السوق في مكانها خلف السور، يترامى عبره نداءات الباعة وأصوات الزحام وروائح الخضر والفاكهة والبهائم والطير والسمك، يسهل استدعاؤها إلى الخاطر في أوقات الابتعاد عن المكان.

من بعد، يبدو كوبري المشاة خاليًا، حتى الباعة الذين كانوا يستندون إلى أعمدته الحديدية، لم يعودوا في أماكنهم، تعرَّى الكوبري من الإعلانات على لافتات القماش والورق.

ما حدث لم يكن مفاجئًا.

نخر التسوُّس سقف المحطة وعروقها الخشبية، تقوَّست الأحجار، وتساقطت أجزاء منها، وتقشَّر طلاء الحوائط، وتشقق، تساندت في جوانبها على أشجار مقطوعة، تغطَّى السقف بالجريد وسعف النخيل، معظم النوافذ خالية من الزجاج، أو غُطيت بألواح الأبلكاش والكرتون، علا التراب ما تبقى من الزجاج، وتساقط على الأرض، وحواف النوافذ، وقطع الأثاث، استقر — في الداخل — على الأرضية والأثاث المتهرئ القليل.

يقضي المفتش ذو الشعر المهوش، والبشرة القمحية، والكتفين المتهدلتين، نهاره ممددًا على بقايا الكنبة، داخل الحجرة الترابية، أو يستأذن من الفراش لمشوار، يغيب حتى ثاني يوم.

الكشك الخالي المجاور لباب الدخول، تحطَّمت نوافذه الزجاجية الصغيرة، تلاشى ما كان يعرضه من صحفٍ وكتبٍ وسجائر وحلوى، خلا من كل شيء، حتى أعمدة الإنارة — بامتداد الرصيف — تحطَّم زجاجها، وانطفأت.

لا يذكر الناس أول من أبدَّى التململ، وأصرَّ أن يلازم المحطة، لا يترك موضعه حتى يعود القطار من محطة البداية إلى المحطة التي كان ينتهي إليها.

زادت — بمرور الأوقات — أعداد الواقفين، تحوَّلت — في مناسبة الاحتفال بمولد ولي في مدينة بعيدة — إلى حشودٍ هائلة، علت الهتافات والنداءات والأعلام واللافتات، نزل

الكثيرون إلى القضبان، حول القطار وخلفه، كان ضغط الناس هزَّ القطار في موضعه، صاح السائق لتوقُّف المؤشر أمامه، بينما تحرك القطار إلى الأمام، تعالى الهتاف والتهليل، أُلقي الملح والزهور على الحشود التي غطت العربات.

واصل الناس دفعهم للقطار، لا يأبهون بتحذيرات السائق من أن المحطة هي آخر ما يبلغه القطار، صارت العربات جزءًا من حشود الناس، تلاصق الأجساد جعل لها مسارًا على الأرض، تخترق الأرض بلا قضبان، تختلط الأصوات بصرير العجلات في تقدُّمها البطيء. بدا ما حدث عصيًّا على التوقُّع، وعلى الفهم، كان القطار يستجيب لضغط التدافع، انزلق في الأرض الرملية، شقَّ له الناس — بتدافعهم — طريقًا، خلا الأفق من القضبان، أزيلت، أو تكوَّمت فوقها الأوساخ، تدافع الحشود شقَّ لها طريقًا، هي الطريق التي كان يقطعها القطار إلى المحطات التالية.

هنداوي